كتاب الهلال

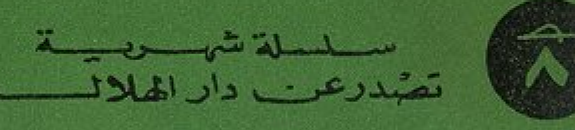
نفرتيتي

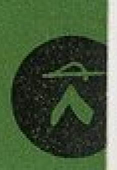
ربة الجمال والتاج

تأليف

صوفي عبد الله







لال »

ى زيدان

ى

العدد ١٣ ـ مايو ١٩٥٢ ـ شعبان ١٣٧١

No. 13 — May 1952

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك
(المبتديان سابقا) القاهرة

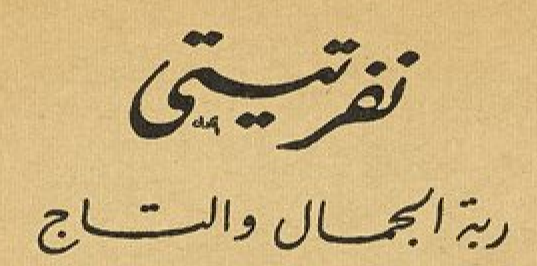
المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٧٩٨١٠ (تسعة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ـ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ـ سوريا ولبنان ١١ ليرة سورية او لبنانية ـ الحجاز والعراق والاردن ١١٠ قروش صاغ ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا



تأليف

صوفي عبد الله

دار الهلال بمصر


PAIR



الملكة نفرتيتي

مقدمة

سلاما أيها القارىء !

من الناس من حياته نفحة من نسيم ، ومنهم من حياته لفحة من نيران الجحيم . ومنهم من يمر بالدنيا كالاعصار لا يبقى ولا يذر ، ومنهم من يشيد فيها ويعمر ، ومن يجىء اليها ويمضى عنها بلا حس ولا خبر ، ومن يشرق فيها اشراقة البدر ، ومن يفعل فيها فعل الوابل الغمر ، فاذا مضى بقى من بعده ما أنبت من خير وما خلف من بر ، ومنهم من لاينفع ولايضر ، ولكنه كالزهر يزهو بالحسن وينفح بالعطر

فأى من هؤلاء نفرتيتى ؟ وأى من هؤلاء هذا الكتاب الذى يتسم باسمها الذائع فى الآفاق ؟.. انها ملكة مصر فى عصرها الذهبى التليد ، وانها أسطورة الجمال المصرى العريق ، وانها صاحبة أجمل تمثال وأشهر تمثال من ذلك الزمان السحيق ... فهى نور مشرق اذا نظرنا الى الملك والتاج . وهى زهرة مونقة ذات عبير اذا نظرنا الى الجمال الرائع . وهى نفحة من نسيم ندى اذا نظرنا الى الفن الرفيع

فأى كتاب هذا ؟ وما دعواه ؟.. أكتاب تاريخ هو ، أم كتاب فى الفن ومذاهبه ، وعلم الجمال ومناهجه ؟ وهل هو ترجمة حياة ، أم هو صورة فترة من حياة شعب ؟ وهل هو متحف

طرائف ، ام هو نافذة تطل على خضم اجتمـاعى زاخر بالتيارات والمؤثرات والاحداث ؟..

انه بعض من كل ذلك ، وشىء فوق كل ذلك ، اذا صدقت دعواه ونفذ الى غاية مرماه ...

فهو صورة حياة امراة ، ولكنها امراة لا تستأثر انوثتها بجوهر حياتها ومبلغ اثرها . فهى ملكة ذات جلال وجمال. وليس هذا اكبر شأنها وانما اكبر شأنها انها امراة « روح عظيم » من انبل واشرف من نهضوا بالرسالات الانسانية ، وحملوا « الأمانة » بتكليف من سرائرهم . وانها زوج ملك وزوج قديس ولد للسلطان ، فنذر نفسه للفتوح فى عالم الروح ، واستبدل بالسيف غصن الزيتون ، وجعل من الحب ناموس حياته وحياة الناس ، ضاربا بحبه زوجتـه نفرتيتى المثل لكل حيـاة كاملة للنفس التى تطلب الأمن والسلام

□

وان الأجيال لتنطوى فى اثر الأجيال ، قبل ان يظهر فى هذه الارض المنكودة ــ ارض البشر ــ روح عظيم بعـد ان يفارقهـا روح عظيم .. فمـا اكثر الناس ايها القارىء ، ولكن ما اقل العظماء حقا . وقليل من العظماء من عظمتهم مستمدة من نبع الروح القدسى والقلب الطاهر النقى

ولقد درجت الحضارة فى مصر طفلة ، ومشت يافعة ، وخطرت شابة ، فقامت على ضـفاف النيـل الهياكل والمحاريب ، وتوطد ركن الدولة ، وامتد سلطانها فى المشرق والمغرب والشمال والجنوب .. ولم يكن ذلك كله مددا من عالم الروح، فليس فى تاريخ مصر كله ــ قديمه وحديثه ــ «روح عظيم » يقرن الى ملكها القديس « اخناتون » !

ولم يقدر لامرأة فى تاريخ مصر كله ـ قديمه وحديثه ـ أن تعيش فى جو روحانى كالذى عاشت فيه زوجه وأخته نفرتيتى . ولم يقدر لملكة ان تعاصر صراعا أهول ولا أروع من الصراع الذى شهدته نفرتيتى رأى العين ، فى ميدان القصر الملكى ، وفى بلاط الملك ، وفى قلبه الكبير الذى هده الحزن وتغلغلت فى أطوائه المرارة والحسرات

ومضى « الروح العظيم » . ومضت زوجه نفرتيتى ... ولكن العالم بقى مشغولا بها فى هذا الزمان ، حيث شغل عن بعلها العاثر الجد . !

ولكنها سطوة الجمال ، وان كانت فى تمثال

ومن هذه السطوة التى لا تقاوم ، يستمد اسم «نفرتيتى» سنده فى تتويج صفحات هذا الكتاب الذى يتناول الملكة الفاتنة من حيث هى قطب الرحى فى معركة الروح والحق والعدل والخير ، تلك المعركة التى يعز نظيرها فى التاريخ والتى رفع لواءها زوجها : « اخناتون »

وفى تواضع الزاهدين ، وتضحية الشهداء والصديقين ، يتوارى الملك الناسك ، ليترك الصدارة للؤلؤة قلبه ، وريحانة بيته ، « نفرتيتى » .. !

ولئن اتخذ هذا الكتاب من جناح الخيال معراجا ، فليس الى غير حقائق التاريخ عروجه ، فكل ما فيه مما أثبته العلم ، أو مما يثبته العقل وان لم يرد عنه فى الخبر المتواتر ذكر ..

فهو صورة حياة امرأة ، وهو صورة حياة ملك قديس وروح عظيم ، وصورة حياة شعب ناهض قديم

مصر الجديدة **صوفى عبد الله**

بين عالمين

فى محبس الزمن

قلت لصاحبى ونحن فى طريقنا فى ذلك الصباح الصائف :

ـ ما أشد ولع الانسان بالسجون والمحابس ، وان أبدى نفوره منها !

فسألنى فى هدوء لا يخلو من تهكم خفى : « وكيف كان ذلك ؟ »

فقلت : « زعموا أن الانسان ولد حرا ، وفطر على الحرية. ونراه اذا عاقب أهدر حرية من يعاقبه ـ وذلك مفهوم . ولكنه أيضا لا يستغنى عن استخدام الحبس والتقييد فى كل غرض من أغراضه ، لفائدة عقله وقلبه »

فابتسم صاحبى وقال : « وأرانى مرة أخرى أسألك : وكيف كان ذلك ؟ »

ـ زعموا أن الحب هو أوفى نعم الله على الانسان ، وقد يفوق نعمة الحرية فى القيمة ويرجحها أيما رجحان . وهذا الحب أقوى القيود التى تربط الانسان .. أفليس هـــذا جمعا بين النعمة والنقمة ، وبين الحبس والمتاع ؟

ـ هو والله كذلك . !

ـ وكلمة «العقل» نفسها ، أليست مشتقة من «العقال»، وهو القيد يربط به الشىء فيقيد ويحبس عن الحركة ؟

ـ بلى ! فالتزام الحدود ، وحبس كل شىء فى حد لا يعدوه هو شرط الحياة المتزنة والتفكير السليم على السواء ...

ـ وهذا ما عنيته حين عجبت لولع الانسان بالسجون

والمحابس وان ابدى نفـــوره منها ... ورحم الله « رهين المحبسين » أبا العلاء ...

ـ ومن احق بالغفران من صاحب «رسالة الغفران» ؟!..
ولكن بم استحق عندك الترحم فى هذا الأوان ؟

ـ بما اقر به على نفسه حين قال :

واعجب منى كيف اخطىء دائما
على اننى من اعرف الناس بالناس!

فكأنه والله كان يشير الى زعمه أن :

أمس الذى مر على قربه   يعجز اهل الارض عن رده

ـ اترينهـم لا يعجـزون عن رد « امس الذى مر على قربه » ؟

ـ عفوك .. ها نحن قد بلغنا غايتنا فادخل تر ...

ـ وماذا ارى ؟.. انه « المتحف المصرى » ...

ـ وهل تريد محبسا للزمن اكبر من هذا المحبس ، يرد فيه« اهل الارض » أمس البعيد ، فاذا به حاضرمشهود ؟.. اليس هذا ما غاب عن ابى العلاء ؟

فابتسم صاحبى وهو يتقدم من الباب الكبير
ودخلنا مع الداخلين

جناح الذهب

وكانت وجهتنا هذه المرة ذلك القسم من الطابق العلوى ، الذى جعل للأسرة الثامنة عشرة ... أزهى عصور الفراعنة من الوجهة الأثرية ، ومن حيث الترف والنعيم ، واستقرار الحضارة وتوطد اركان الدولة على العزة ، وتمتعهــا بثمار النصر ونعم السلام ..

وان خطوة واحدة داخل ذلك الجناح تكفى لمعرفة السر فى تسميته : « العصر الذهبى » فى تاريخ الفراعنة .. فهو

حقا عصر الذهب : كل شيء فيه فاخر ثمين ، وحلي الذهب واقنعة المومياء من النضار الخالص ، وما من صغيرة أو كبيرة الا وهى تنم عن ثراء عريض وغنى لا حصر له . . .

والناس قد درجوا ـ العامة منهم والخاصة ـ على الافتتان بالثراء ، والانبهار برنين الذهب ولمعانه الأخاذ . . فحيثما كثر الذهب وتدفق فى مجارى الترف والبذخ ، كان ذلك العصر فى وهمهم أسنى العصور ، وأولاها بالتهليل والتكبير

ولكن هل عصر الذهب هو العصر الذهبى حقا ؟ هل كثرة الذهب فيه اطلاقا دليل قاطع على الرخاء العام والنعمة السابغة الشاملة ؟

ألسنا نري اليوم الذهب وقد كثر فى الأسواق ، فلم ييسر للناس الأرزاق ، بل ضاق الأمر حتى كاد لا يطاق ؟

فمن التزام الحق والمنطق الدقيق ، الا ننزلق مع « ذلاقة اللسان » فنقول انه «العصر الذهبى» لأنه « عصر الذهب» . . . ويحسن بنا الا ننسى تجربة الانسان من أقدم الأزمان لهذا الأصفر الرنان ، فقد كان على الدوام خادما نافعا ، وسيدا ملعونا !

وربة التاج ؟

وناهيك بكنوز توت عنخ آمون ، التى كان أكثرها من قبل لأخناتون . . فنزع اسمه من فوقها ـ أو طمس ـ لينقش اسم الملك الشاب ، امعانا فى النكاية ومحو آثار الانقلاب . .

وجعلت أتأمل تلك الصور الصغيرة التى تمثل فرعون مصر وزوجه وبناتهما الصغار فى كافة المناسبات . . صور ناطقة ، تكاد روعة الوانها وخطوطها ان تنبض بالحياة . .

اى وربى ! لولا حواجز الزجاج لتلمست بيدى تلك

الصور ، فان فى العقل لشكا ان تكون أكثر من رسوم على الأحجار ...

واخذتنى تلك الصور العائلية ، وما فيها من نفح الحب والرحمة والحنان .. فأذكرتنى سائق عربة الجر الذى نراه اليوم يضع ولده الذى لا يجاوز طوله الشبر على ركبتيه ويأبى الا ان يمسك فتاه عنان الحصان !

ولكن طغى على هذا الشعور شعور بالغبطة لتلك المراة ، زوج فرعون .. فهى اول ملكة تلزم زوجهـا الفرعون فى جميع الطقوس والمشاهد والرسوم . وليس لذلك أصـل عميق فى الطبيعة الشعبية عند المصريين ، الى يومنا هذا .. ودون أن أدرى ألفيت نفسى أهتف فى اعجاب وحسد :

ـ ايه « نفرتيتى ! » لقـــد أوتيت ما لم يتهيأ لأحد من قبلك ولا من بعدك !

ثم سألت مرافقنا العالم الأثرى ، حين لم أجد مومياءها بين تلك المخلفات العظام :

ـ ولكن أين ربة التاج ؟ أين شمس ذلك السلطان ؟

فقال الرجل : « من يدرى ؟.. لم يعثر لجثتها على اثر ، كما لم يعثر لزوجها على قبر »

وتلفت القى على كل تلك التحف نظـرة أخرى ، وقد انقلبت غبطتى لصاحبتها رثاء واشفاقا ..

▭

وكأنما أدرك الرجل بعض ما فى نفسى ، فاستطرد يقول :

ـ لقد لازمنا سوء الحظ حقا فى شأن نفرتيتى ، فاذا كان فقدان مقبرتها أمرا يعلل بفعل الزمن ، فبماذا نعلل ضياع تمثالها من أيدينا ، ليزدان به متحف برلين ؟!

ـ لا ادرى بماذا نعلله ، ولكن لا بد له من علة على كل حال ..

ـ طبعا .. ولكنها علة لا تسر ، ويكتنفها الخزى من اكثر من جانب واحد . فقد كشف ذلك التمثال البديع عالم اثرى المانى . والرجل يعلم ان قانون الآثار المصرى يحتم احتفاظ متحف القاهرة بالقطع التى لا نظير لها ، وما له نظير يقسم مناصفة . وهو يعلم ايضا ان التحفة التى عثر عليها لا نظير لها فى كمال الفن ، ودقة الصناعة ، واهمية الدلالة التاريخية . فهى اكمل وأجمل تمثال من ذلك العصر ، عصر الذهب والترف . فسولت له نفسه أن يغطى التمثال الجميل الرائع التلوين بمادة عازلة من القصدير ـ كذلك الذى تغطى به قطع الشكولاتة ـ ثم يجعل حوله الجص من كل جانب ، بحيث يبدو شيئا منفرا لا معنى له ولا لون ولا طعم ... فجازت الحيلة ، وخرجت التحفة الفريدة من الديار ، فتخطت البحار الى برلين وهناك جلوها للناظرين من غشاوتها المموهة ، وابتنوا لها ـ اعتزازا بها ـ بهوا خاصا على الطراز الفرعونى

وهكذا حظيت برلين بذلك الذخر الثمين ، وخلت مقاصير متحفنا من ربة ذلك الملك الباذخ جسما وتمثالا ..

الروح الحائر ..

وانتصف النهار .. وآن لى أن أرحل عن المتحف ، وأن أبرح «جناح الذهب» فيه ، ولا زالت مأساة نفرتيتى تداعب وجدانى وتأخذ على أسباب الهدوء . فكل هذا النعيم كان ملك يديها ، وقلب زوجها كذلك كان حانيا عليها صادق الحب لها ، وتلك نعمة أندر من الملك والجاه العريض ، فطالما عز القلب الخالص الود على ذوى التيجان والعروش . أما هى فكان لها هذا وذاك جميعا . فكيف غربت تلكم الشمس ،

وكيف انتهت الى المنفى والتشريد جسما ومثالا ؟

وأغمضت عيني للنوم حين بلغت مقامي ممتلئة النفس بما شهدت ، وبما استثارته المشاهدة في نفسي من ذلك القدر الذي رصد لربة التاجين ، صاحبة الجمال والجلال « نفرتيتي » .. حتى لقد تمنيت انني رأيتها رأى العين ، وصحبتها صحبة ألفة وارتفاع كلفة ، كي أعرف الحياة كما كانت في « عصر الذهب » ، وأنفذ من وراء هالة الزمان السحرية الى قلب الانسان النابض في كل زمان بالآمال والافراح والاشجان ...

وشاقني أكثر من هذا ، وأنا أتهيأ للنعاس بعد وجبة عجلى ، أن أعرف حال الأمة في ذلك الزمن الفريد ، الذي رفع لواء الثورة فيه رب الحكم وولى الدنيا والدين ، فخذله من انتصر لهم ، وعفت آثاره ، وعفت آثار زوجه نفرتيتي معه ، وصار الى ذمة التاريخ ذلك البصيص الفذ الذي أومض ثم خبا وشيكا وقد اجتمعت عليه أهوية الاهواء من كل حدب وصوب ...

وقلت في نفسي ما قال أبو العلاء :

كم وعظ الواعظون منا   وجاءت الأرض انبياء
وذهبوا ، والبلاء باق   ولم يزل داؤها العياء
حكم جرى للمليك فينا   ونحن في الاصل أغبياء !

ثم غفوت .. ولا أدري كم من الزمن غفوت ، فاذا الباب يفتح في غير صوت ، ثم يدخل على شبح ملتحف بالصمت، تحوطه المهابة وهيبة السمت ، لم أتبينه بادىء الأمر في عتمة المخدع ، حتى اقترب مني فصار على قيد خطوات أربع فاذا راس ولاساق ، تمشي في الهواء او هي تسبح فيه وئيدا

وكدت أصيح مستنجدة ، فاذا الرأس يكتمل له عنق

طويل ، وصــدر نحيل ، وبطن متهدل ، ثم ســــاقان فيهما نعلان ، وعلى تلك المرأة غلالة من نســيج رقيق تشى بأكثر مما تخفى ٠٠ وفوق رأسها ذلك التـــاج المستطيل ، وفى نظرتها ذلك السحر الجميل ٠٠٠

وقبل أن أفتح فمى لأهتف مأخوذة بما أرى :

ـ هذه نفرتيتى وايم الحق !٠٠

كانت الملكة قد سبقتنى الى الكلام ، مرددة شطر البيت الأخير مما تمثلت به : « ونحن فى الأصل أغبياء » ٠٠٠

فحملقت فيها لا أدرى ما أقول ، فاستأنفت كلامها فى تأنيب كالتدليل :

ـ أجل أغبيـــاء ! فقد كنا أغبيـاء حين حسبنا الارواح لا تعيش الا فى الاجسام ، وفى أجسامها التى سكنتها فى حال الدنيا على وجه الالزام ٠٠٠ وهاأنذى أبعث من جديد لأظهرك على فساد ذلك الرأى ٠٠٠

وأحسبنى كنت أتفحصها مبهورة بشكل ظاهر،فابتسمت وسألتنى : « هل أعجبك شكلى ؟ »

وسكتت لحظة ، واستطردت : « لا أظن ! بل أكبر ظنى انك شعرت بخيبة كبرى ٠٠ فان الذين فتنهم تمثال رأسى وعنقى يخيب أملهم اذا رأوا ما فى سائر جسمى من اضطراب فى الهندسة وتنافر فى التكوين ٠٠ »

ـ عفوك مولاتى ، ولكن ٠٠٠

ـ لا لكن هنـــاك ! تلك هى الحقيــقة ، ولا أكتمك اننى ما كنت أجهر بها الآن الا وقد فارقنا عالم القشور والغرور وتخلصنا من ذلك الجسد بما فيــه من قبيح ومليح ٠٠ أما ونحن فى الدنيا ، فقد سرنى أن يصنع الصانع تمثالى خاليا من ذلك العيب الظاهر ٠٠ أم تراك تصدقين طرفة عين أن يكون جسمى جميلا ممشوقا ثم أتردد فى تخليده للناظرين؟

انني ملكة النيل ، وسيدة الخافقين ، ولكنني امرأة أولا ٠٠٠ ولا تزهد امرأة الا فيما لا زهو فيه ٠٠

وابتسمت لهذه الشهادة الخالصة ، التي يعزى الفضل فيها الى زوال الغرض وانتفاء الخسارة ، بعد ختام الحساب وانقضاء اللبانة ٠٠ وبدا على شيء من الدهش والتساؤل ، فسألتني أن أفصح عما أضمر ، فقلت وأنا أغالب الحرج :
« انه لشرف عظيم يا مولاتي ٠٠٠ »

فقاطعتني ، وقد فهمت بقية المقال :

ـ ولكنك تعجبين كيف علمت أنك تشتهين لقائي ؟٠٠٠

ـ هو ذاك يا مولاتي ٠٠٠

ـ لقد اشتقت لقائي ، وكان شوقك صادقا ، فلمس روحي ٠٠فجئت اليك خفيفة على جناح من الشوق المستطار

ـ ولكن يا مولاتي ، ذلك يبين لى كيف جئت ، وليس على الارواح عزيز ، بيد أنه لا يظهر لى كيف علمت ما فى نفسى من شوق شديد ٠٠٠

ـ وهل ذلك أصعب من المثول من عالم الى عالم ، والشخوص من دنيا الارواح الى دنيا الاشباح ؟ أما سمعت يا بنية بالمذياع ؟ بل انى أراه الى جوار فراشك ٠٠٠

ـ أجل ٠ هذا مذياعى ٠٠٠ ولكن ٠٠

ـ ولكن ماذا ؟٠٠ انك تستخدمينه ولا تعجبين من انتقال الصوت آلاف الاميال ، ومن انفعال الحديد الأصم بموجات الأثير ٠٠٠ فكيف تعجبين بعد هذا لما هو أقرب الى البداهة السديدة ، من انفعال روح بروح وان بعد المدى فى زمان أو مكان ؟٠٠

ـ عفوك يا جدتاه !٠٠ انما نحن أطفال الحياة ، ومهما بلغت حدة عقولنا ، لم نتخلص من رق العادة ٠ فنحن لا نستغرب المألوف وان بدا فى ضوء العقل عجيبا ، ونستغرب

ما لا غرابة فيه اذا لم يكن مألوفا ...

ــ لا عليك !.. فقد كنا مثلكم فى ذلك الرق . ولم نكن خيرا منكم ، أبناء هذا الزمان

وتنهدت وسكت ، كأنى أكتم حسرة شديدة ، فقالت :

ــ فيم هذا ؟ ألم تريدى لقائى ، وهأنذى ؟..

ــ مولاتى ! لقد صنعت لى ما لا طاقة لى بشكره . ولكنى اشتهيت أن أعيش فى زمنك ، لا أن تعيشى أنت فى زمنى..

ــ وبعد ؟ ما الذى يحزنك اذن ؟

ــ اننى لا أنال ما أشتهى ، وان كنت شاكرة لما نلت...

ــ ومن قال لك يا بنية أنك لا تنالين ما تشتهين ؟..

ــ وكيف لى به ؟ أنى لى أن أعيش فى زمنك يا مولاتى ، ودون ذلك سجن منيع من الزمن ، ان قرونا طوالا تفصلنا ... فأين أين الفرار من ذلك الاسار ، ليتسنى لى أن أعيش فى عصرك وأجلو الغامض من سرك ؟ ..

هو على هين

فابتسمت الملكة ، وبدا جلال الملك شيئا ضئيلا الى جانب ما يضفيه العلم النافذ الى ما وراء الاستار من هيبة طاغية ، ثم قالت :

ــ لا عليك ! هو على هين ...

ــ أعلم هذا ! فأين آماد الزمان وأبعاد المكان من الأرواح التى تخطت ذلك العالم الفانى ؟ .. ولكنه على انا الفانية ليس هينا ، بل هو على التحقيق ليس ممكنا

فابتسمت ابتسامة عريضة ، كما يضحك الشيخ من طفل غرير ، وقالت :

ــ على التحقيق ؟.. وما تدرين أنت ، بل ما تدرون

أجمعين من أمور الوجــود على التحقيق ؟ دعى عنك هــذه الخزعبلات .. وتعالى ألمس جبينك بيدى هذه ...

ووضعت يدها فوق جبينى ، ثم قالت لى : انظرى فى المرآة ، فنظرت ، فلم أر صورتى ، وان رأيت صــورة كل ما فى الحجرة ، عداها وعــداى .. فقالت وقد أضحكتها دهشتى :

ــ أنت الآن ترين وتسمعين ، ولا يراك أحد ولا يسمعك .. وعلى جناح الأثير ستطيرين معى الى عصرأبى ، وعصرى، ثم تعودين قبل انبلاج الصبح فى دنيا العالمين ...

وانطلقنا ...

والد وما ولد

نسب مغموز

وفى أقل من لمح البرق الخاطف ، كنت واياها فى مكان منعزل على شاطىء النيل •• وليس من حولنا ديار ولا نافخ نار • ولكنى استشعرت أنسا ، ولم تخالجنى الرهبة ولم تخطر لى ببال • فنظرت حولى أتملى من جمال المكان ، وقد خيل الى أنى رأيته من قبل ••

ووضعت يدها على يدى ، ثم قالت لى :

ـ نحن على أبواب طيبة ، وقبل أن نهبطها ينبغى أن أقدم لك نفسى ••

ـ عفوا ملكة النيل !•• ومن ذا يجهل نفرتيتى ؟••

ـ بل قولى : من ذا يعرفها ؟• فليس أقرب وألصق بالمرء من نفسه ، وبرغم ذلك فانه يسلخ العمر الطويل ثم تبدر منه البادرة فاذا هو يستغربها وكأنه لم يكن يعرف نفسه على هذا الغرار من قبل••• فكيف وقد غبر الزمن، وصارت الدولة غير الدولة ، والاوضاع غير الاوضاع ؟••

ـ ذلك حق ، ولست أدرى كيف نسيته

ـ أنا بنت الأكرمين : أبى أمنحتب الثالث ، وأمى الملكة تى •• وكلاهما ذو مكان رفيع فى تاريخ هذا الوادى العظيم

ـ وهذا شأن لا يجهله أحد يا بنت أمنحتب ، أو يا بنت امينوفيس ، على رواية فريق من أصحاب التاريخ القديم••

ـ ولكن هذا ليس هو الحق كل الحق ••• فمن أمنحتب الثالث ؟

ـ هو ابن تحتمس الرابع حفيد تحتمس الثالث بطل

مجدو ، وفاتح فلسطين ، وقاهر الشرق ، وصاحب الحرب الخاطفة ، صاعقة الحروب الذى لا يشق له غبار ..

فطامنت نفرتيتى من رأسها الدقيق فى اكبار ، وقالت :

ـ كذلك كان تحتمس الرابع ، وأكرم به من جد مجيد ، لو أنه كان جدى حقا وصدقا !..

ـ وى !

ـ وفيم العجب ؟! ان أبى ينسب الى تحتمس فى رواية تسجلها الآثار والجدران ، برسوم ناطقة بأجلى بيان، ولكنها اسطورة ابتدعها الكهان ، ليوطئوا العرش لأبى من بعد وفاة تحتمس الرابع فى ميعة الصبا ، غير مجاوز ستا وعشرين سنة !

ابن الاله !

فارتسم على وجهى مصداق ما فى نفسى من العجب ، وقلت :

ـ ان هذا والله لحديث خطير ، اذا جاز لى أن أستعمل لغة الصحافة فى هذا الزمان !. فكيف يقحم على العرش ـ وأى عرش ؟! عرش الفراعنة سلالة الآلهة ، أوطد العروش فى العالم القديم ـ رجل ليس من نسل الملك ، وينسب الى ولد الملك ، والعهد بالقصر الملكى فى ذلك الزمان ان حركاته تحصى وترصد ، وان أبناء فرعون ليسوا هملا يجهلون ، حتى يبرز الى الوجود دعى ليس منهم فيصدقه الناس ..؟

فابتسمت نفرتيتى ابتسامة الاشفاق ، ثم قالت :

ـ أجل ، فرعون صاحب أوطد العروش ، ونسل الآلهة الميامين . ولأنه نسل الآلهة الميامين ، وخليفتهم على الوادى المبارك ، جاز لوالدى أن يرتقى ذلك المرتقى العجيب

فقلت وأنا بين الانكار والتصديق :

ـ انها الجهالة العمياء والغي ٠٠ فقد صارت لآمون بعد طرد الهكسوس دولة تطاول الدولة ، وأغدق على كهنتـــه الهبات والاموال ولاسيما بعد اتساع رقعة الملك ، حتى صار لهم سلطان المال الى جانب ســلطان الدين ، واكتملت لهم أدوات السيطرة جميعا ، فطغوا وبغوا ، وطمحوا الى السلطان السافر ٠٠ وتبعهم العامة ايمانا بالشعوذة ، وتبعهم غيرهم من كبار القوم ابتغاء المنفعة ، بعد أن صارت لهم خير الضياع والاموال فى مصر والشرق كافة ٠٠٠ وليس ســلطان المال الطائل بالشيء الذى يحتاج الى بيان فى زمان ـ كزمانكم ـ مست فيه الفلسفة الاجتماعية كل جيب ، وكل معدة ٠٠٠

ـ أى والله .. ان هذا لحق ..!

ـ فهل كان هذا حريا أن يرضى فتى غض الاهاب ، قوى الاصلاب ، كتحتمس الثالث ؟ لا وحق مجدو وقادش ويافا والفتوح الغر فى الشام والفراتين !٠٠ فنام هؤلاء الكهان عن الفتنة حتى ذهب تحتمس الثالث ، وذهب من بعـده ابنه امنحتب الثانى (أو أمينوفيس الثانى) الذى كان سر أبيه فتوة ، وقوة ، ومضاء ، وجاء من بعـدهما تحتمس الرابع الشاب الألمعى المتوثب الى العزة ٠٠ وقد أشرب كراهة كهان آمون ، وما فيهم من نزعات دنيوية تخرج بهم وبالدين عن نصابه الحق ٠٠ فمال الى الدين العـــريق ، دين منف ، أو مدينة الشـمس ٠٠ أقرب الاديان القـديمة الى التجريد وأبعدها عن الدنيويات والتجسيم والوثنية وخزعبلاتها٠٠ فاجتمع فى مسلك تحتمس الرابع دافعان متباعدان : هما الغيرة على السلطان ، وكراهية الطغيـــان من جانب كهان آمون الذين يعمـــدون الى الدجـــل والادعاء مع الغوغاء ، ويلوحون بالارزاق لمن لا يجـدى معه الدجل والادعاء ٠٠٠ بيد أن الفتى كان أطرى عودا من الصمود لذلك الاعصـــار الجائح أو الاخطبـــوط المنتشر فى كل مكان ٠٠ ولم يلبث

الموت أن عاجله في السادسة والعشرين من عمره • فانتهز كهان آمون الفرصة ليقضوا على تلك الشجرة المعادية من الفراعنة٠٠ولاسيما وبنو الملك الراحل صغار السن لا حول لهم ولا طول

ــ ولماذا لم يرتق العرش كبير الكهان ؟ أزهدا فيه أم سياسة ؟

ــ بل سياسة٠٠فان الناس على كل حال لا يقرون بالملك الا لوارث شرعى ٠٠ فلماذا لا يصنع الكهان وارثا شرعيا؟• وقد كان ! فصنعوا من ابى وارثا شرعيا ... جاءوا به ، وكان من ابناء الاسرة فى فروعها البعيدة عن حق وراثة العرش ، كما ياتى المستعمرون فى الزمن الحاضر بأمير كان لايحلم بالملك فيولونه لكى يدين لهم بالفضل ما عاش ...

ــ ما أصدق من قال : « لا جديد تحت الشمس ! »

ــ لا جديد مطلقا ٠٠ وفى السياسة على وجه الخصوص• ولكن كيف يولونه الملك وهو ليس من أبناء الملك ، وللملك ولد ؟٠٠ لا سبيل الى ذلك الا أن ينسبوه اليه • ولكن أنى لهم هذا وأولاد الملك معروفون ، سواء أنجبهم من الزوجات أو من الحظايا ؟ لا مفر اذن من الاستعانة بالاله نفسه لحل ذلك الاشكال ٠٠ ففى زماننا أيضا كان الآلهة « ممسحة » لأهواء البشر وأخطائهم • فأذاعوا أن أم أبى قد حملت به من الاله آمون ، الذى ظهر لها فى صورة تحتمس الرابع ، فاقترب منها ومسهاكما يمس الرجال النساء ، وحملها تلك النطفة المقدسة ، ايذانا بحقها في عرش مصر بفعل مباشر من الاله ، صاحب الوادى الأصيل ٠٠ وتلك الرواية مرسومة بجميع تفاصيلها على آثار الوالد

ــ وكيف صدق الناس ؟

ـ لقد صدقوا ، لأن الجهل أعمى ، أو لأن التواطؤ مع كهنة آمون كان أنفع وأجدى عند طلاب المنفعة ٠٠ وهكذا صار أبي ابن تحتمس الرابع بأمر الهى دون أن تكون لتحتمس الرابع يد فى ذلك الانجاب ، فهو لم يكن يكبر أبى بكثير من الاعوام.. وهكذا يرتفع صاحب النسب المغموز فيصبح ابن الاله !

بقية التدبير

فقلت مأخوذة بما سمعت :

ـ لقد كانت العادة المتبعة أن يتزوج الملك الجديد ابنة سلفه ، ولو كانت أخته ...

ـ كذلك كان ٠٠فان للمرأة فى دولة الفراعنة حق الميراث مثل الولد ، وقبل الولد فى بعض الاحيان ... مثل وراثة الارض والعقار والبيوت المأهولة ، كى يضطر أبناء البيت الى الزواج من بناته ليحتفظوا بتراث الآباء ، وبذلك يبقى الدم غير مشوب ، ويظل رباط الأسرة وثيقا ، وتظل للبنات المكانة والكرامة من بعد أن يتزوجن ، بما حملن الى بيت الزوجية من مال ...

ـ ذلك ما علمته يا مولاتى عن عهدكم الزاهر ، ولا زالت أسرنا في الريف والصعيد تؤثر زواج أبناء العمومة ، بعد أن حرم الدين زواج الأشقاء

ـ وكان الملك الجديد يرث القصر بحريمه من السرارى والزوجات ٠ ولكن أبى لم يتزوج بنتا من بنات الملك ، ولم يبن بأرملة من أرامله ...

ـ أتقولين أرامله ، بصيغة الجمع ؟ فهل كان التعدد مباحا ...؟

ـ للملوك وخاصة الخاصة من الناس٠٠أما سواد الشعب فكان مقيما على الزواج بواحدة ... وكذلك كثير من العلية

ـ ولماذا لم يتزوج الملك واحدة من هاتيك ؟ أم كان الأمر اختيارا لا الزام فيه ؟

ـ بل هو فى حكم الملزم ٠٠ فليست فى العالم القديم كله حياة مقيدة بالمراسم والتقاليد والاصول المرعية كحياة فرعون مصر ٠ لا فرق فى ذلك بين حياته الخاصة وحياته العامة ، لأن فرعون كل لا يتجزأ و « كينونة » عامة تملكها واجباتها ملكا خالصا ، ولا مناص من ذلك ٠٠٠ والى هذا يعزى السبب فى احتياج الكهان الى أسطورة لتبرير ارتقاء أبى عرش الفراعنة

ـ هى الثورة اذن ٠٠٠ أم هو الحب والغرام ؟

ـ بل هى بقية التدبير ، التقت بهوى قلب شاب ٠٠٠

ـ وكيف كان ذلك ؟٠٠

ـ كان مراد الكهنة اقصاء بيت تحتمس الرئيسى عن العرش ، فأقصوا البنين ، وكان اقصاء البنات هو تمام التدبير ٠٠٠

ـ ولكن كيف يتم ذلك ، فأكبر الظن أنه يحتاج الى تدخل جديد من آمون ؟!٠

ـ لا عليك !٠٠ فان الذى يتدخل « آمون » لانجابه من صلبه يحق له أن يواجه شعبه بما يشاء فى أمر نسله وصهره٠٠٠وكان أبى ـ وهو أمير ـ دائم الاتصال بكهان من سدنة آمون ، لأنه كان متيما بابنة أحدهم « يوا » ـ ولم يكن من كبارهم ـ وكانت زوجته « تيو » وصيفة من وصيفات القصر ٠ فلم يكن اختيار أبى اعتباطا ، بل لتدلهه بابنة الكاهن ، وصلته بالكهنة صلة تحمل على الاعتقاد فى طواعيته لهم ٠٠ فما استدار العام حتى تم التدبير المقدر ، وتزوج أبى من الملكة « تى » ، فرفع مقامها فوق كل مقام ، وجعلها الملكة الرسمية وصاحبة الصدارة والشورى فى كل

أمر . وجعل والدها على رأس رجال حاشيته ، ورفع أمها الى مقام الأميرات ، فصارت من «الحريم الملكى» .. لا بمعنى أنها زوجة ، بل بمعنى انها من النساء أعضاء بيت فرعون المباشر ، مثل الأم والأخت وما الى ذلك ...

ـ مرحى ! ان فى عروقك اذن دماء الكهان من سدنة آمون ؟ ..

ـ ما فى ذلك شك ! بل انه أثبت من نسبة دمى الى تحتمس .. ولم يكن زواج أبى شيئا عاديا ، فما هكذا يتزوج أبناء الآلهة ! بل جعل من ذلك حادثا قوميا، يسجل فى الآثار وتقام له نصب التذكار !

تركة حافلة

فقلت :

ـ لا أدرى يا مولاتى أيهما أروع : مكانك فى التاريخ ، وفى ثبت الجميلات الخالدات ، أم جرأتك فى الحق ، على نفسك ، وعلى آبائك الميامين ؟ ..

فزمت شفتيها فى هدوء الخالدين ، الذين ودعوا هوى الدنيا ، وأجابت :

ـ لا يغرنك منى مثل هذا يا بنية .. انما هى حكمة لا فضل لنا فيها ، لانها لم تظهر الا بعد فوات أوان الاهواء، وانقطاع اللبانات ... ولا فضيلة الا حيثما تكون مغالبة هوى وصراع شهوة !..

ـ وهل أفهم مما قالت مولاتى عن والدها امنحتب الثالث ووالدتها ، ان العصر كان عصر انحلال ودولة تنحدر الى الزوال ؟..

ـ أجل ، تفهمين ذلك ، وتفهمين عن حق ...

ـ ولكن الدول يا مولاتى لا تدول بين عشية وضحاها . ولم يكن مرتقى والدك العرش الا كالغد القريب بالنسبة

لعهد الملك تحتمس الثالث .. صاحب قادش ، ومجدو ، ووادى عرة ، وصاحب الملك الذى لم يهيأ لأحد من قبله فى الخافقين .. فكيف انتقل الحال الى نقيضه فى طرفة عين ؟

ـ هذا من ذاك !..

ـ لم أفهم ...

ـ بل ستفهمين عن يقين .. أتعرفين ترهل الشيخوخة المترفة بعد الشباب الكادح ؟ .. اتعرفين نابليون « سنت هيلانة » بعد نابليون «اوسترلتز » و « ينا » ؟ بل أتعرفين قوله عز من قائل : «واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها » ؟ وهل تعرفين مذهب فيلسوفكم الاجتماعى الحصيف ابن خلدون ، عن مراحـل الدول وأطوارهـا من البداوة الى الحضارة والرخاوة ؟

ـ أعرفها مولاتى ولا أنساها ...

ـ لقد عرفت اذن كيف سرى الانحلال الى هـذا البنيان المشيد ، ونخر السوس فى قوائم ذلك المجد الوطيد ... فقد جنى خلفاء تحتمس الثالث ثمار نصره وجهـده يانعا جنيا ، وأغناهم بأسه السابق عن جهـاد لاحق ، فاذا طاعة شاملة ، وسلم دائم ، وذهب يتدفق ، ونعيم مقيم... فأثرى التجار ، وتضاعفت الاموال ، واستنام الناس للترف ، كما يستنيم الشـيخ أو الكهل للثروة الهابطة ، فيأكل حتى يتخم ، ويشرب حتى يثمل ، ويكون همه فى اللذة الصارخة ... فهل بعد ذلك تهون عليه تضحية فى سـبيل قيمة خلقية ، أو تغلبه النخوة فى سبيل حق مهدر ، وهل يكون فى مثل ذلك المجتمع مكان لرعاية الصالح العام قبل المنفعة الخاصة ؟

ـ كلا وربى ...

ـ صدقت ! وهكذا تنحل الدول ، ويصبح للأبهة المحل الأول ، وتكثر المفاسد ، ويباع كل شىء باللذة العاجلة ،

حتى الذمم ، وحتى رجولة الرجال ، ويكون التفاخر بالبذخ والمظاهر هو قانون الجماعة ...

ـ بئس هذا ...

ـ أجل ... فهذا هو أس الفساد

ـ هو فساد الأمة اذن ، لا فساد الحاكمين ؟..

ـ ومتى انفصل هذان ، الا فى ذهن كليل وعقل هزيل؟. الحاكمون خليقة المحكومين ، وصنع أيديهم ، وصدق القائل الكريم « كما تكونوا يول عليكم » ...

ـ أبوك امنحتب الثالث اذن مظلوم ... فقد تلقى هذه التركة عن تحتمس العظيم ...

ـ أجل ، تلقاها وتلقتها مصر، سما قاتلا يكمن فى أكاليل النصر ! وكذلك كل نصر .. ففى المزيد من النفع ضرر ، لأن العالم كله شىء واحد ، وليس فى استئثار عضـو من الجسم بمعظم الدم خير له ولا للجسـم كله ، وان توهم أنه الظافر المجدود حمقا منه وغفلة ... ولكن الانسان ظلوم جهول !

أعقاب البيوت

فتمهلت قليـــلا ، ثم عقبت على كلام الملكة نفرتيتى فى استحياء :

ـ مولاتى .. فى النفس خاطر عن لى ...

ـ هاتيه ولا تكتمى ...

ـ انها ظاهرة مشاهدة فى هذا الزمان ، وأحسبها قديمة قدم المجتمعات كافة ، أن تكون أعقاب البيوت دون بواكيرها فى البأس والفتوة .. فالأوائل يبنون ويشيدون ، ثم تأتى الأعقاب فلا تجد زيادة لمستزيد ، فتستنيم الى ما يفىء عليهم عمل الجدود ...

ـ هو ذلك ٠٠ ولكن نزيد عليه شيئا ، أنتم أهل هـذا الزمان فى مصر والشرق أولى أن تلحظوه ، وتولوه العناية كل العناية ، وهو وبال الاستعمار والفتح على المستعمر والفاتح وان طال المدى : انظرى أين دالت دولة روما القديمة، وكيف تطرق اليها الفساد باتساع الملك وكثرة الفيء ! وانظرى دولة الأكاسرة ، ثم دولة العرب ٠٠ واعلمى واثقة أن هذا الداء بعينه هو الذى سيقوض كل مستعمر غاصب فى هذا العصر ٠٠ ولكن الانسان عجول بقدر ما هو جهول !٠٠

ـ صدقت مولاتى ٠٠٠

ـ فاذا كنت مستعدة لاستخلاص العبرة النزيهة الصادقة على هدى وبينة ، ولست ممن يتسابقون وراء الالفاظ الضخمة والاهواء العمياء ، فاعلمى أن كل مجد يقوم على الفتح والغلبة ينتهى بانهيار الفاتح الغالب ، بما يدخل فى نفسه من الغرور وما يستنيم به الى التنعم والترفه ، فلا يكون همه أن يعطى الدنيا من نفسه، بل أن يجبيها لنفسه ٠٠٠ وتلك هى الآفة الكبرى ، التى لا تكاد تكون آفة سواها للدول والافراد على السواء : فمن نظر الى الدنيا على أنها لهو ساعة ومتاع حين، يأخذ منها ولا يبذل لها ، كان حريا أن يكون وجـوده عالة على ركب الحيـاة ، تخسر بوجوده لانه مستهلك مستنفد ، ولا تخسر بموته لانه لم يكن عاملا فاعلا فيها بالخير والنماء ٠٠ فأى ما كان هذا الشخص من الأبهة والمكان ، فمثله فى الدنيا كمثل البرغوث، ولو حلى بالذهب واكتسى الارجوان٠٠

ـ مولاتى ! ما أحفل التـاريخ بالبراغيث تحت أكاليل الغار ونصب التذكار !٠٠

ـ بل ما أكثرهم فى البيوت والطرقات ٠٠ فمن ذا الذى يعيش لما يفعل للناس لا بما يسلبهم اياه ؟٠٠ أف لنا معشر البشر !

وكأنما أدركت الملكة أنها اندفعت فى الحملة شيئا ما ،

فاحببت أن تخفف على وقع الأمر ، فاستطردت فى صوت خفيض كالمعتذرة :

ـ لا عليكم أهل الدنيا ... فداؤنا داء عياء ، ونحن كما قال حكيمكم « فى الأصل أغبياء » . كذلك أنا يا بنية ، وكذلك تكونون ، فما أقل ما يتعلم الناس من أطوار التاريخ وتجارب الايام ... فلا تحسبى أنا كنا خيرا منكم ، وانما كنت أتمنى أن تكونوا خيرا منا بعد كل هذه الاجيال ...

فابتسمت وقلت كالمازحة :

ـ وهل نسيت أننا أعقاب السلالة يا ذات الجلالة ؟

فابتسمت الملكة ابتسامة جذابة ، وقالت وهى تعرك أذنى :

ـ ويحك ! وهل نسيت يابنية اننا نؤمن بالبعث وتجدد الحياة .. فلماذا لا تتجددون ، ولماذا لا تبعث البلاد على أيديكم أعز نفرا ، وأوفر حكمة ، فتكون نعمة على الدنيا وبركة ، وتسهم فى رخاء البشرية وارتقائها ؟

ـ آمين ...

ـ لقد ورث أبى التركة ، فمضى فى التيار ... حتى بلغت الامور غايتها ، ولكن بعد عهده ، فكان هو الذى « استدان » من حساب المجد وصلاح الأمور والعدل والحق ولكنه لم يقم بالسداد ، ولم يطالب به فى حياته ...

ـ كذلك نحن فى هذه الأزمان الاخيرة ، بل وفى جميع الازمان ، الآباء يأكلون الحصرم ، والابناء يضرسون

تبعات الملك

الواجب الأول

وشردت الملكة ببصرها شيئا ما ، ثم عادت تقول :

ـ ولكن لا تظنى يا بنية ان الملك فى عالمنا القديم ، فى هذا الوادى الكريم ، كان لهوا وزهوا ، وحكما هو التحكم، والتماس المغنم ... كلا ! وانما هى تبعات جسام ، وعبء من عرفه لم يغبط عليه حامله ولو كان فى مقام الآلهة المعبودة ...

ـ ولكن يا مولاتى ، ليست كل التبعات سواء عند الانسان الواحد ، وهى ليست فى مجموعها سواء عند الاجيال من الناس ..

ـ الا تبعات فرعون مصر !.. فقد حددت تحديدا دقيقا، يعرف أولها من آخرها . فأولها على الاطلاق هو واجب فرعون نحو أصحاب الوادى الأصلاء ، الذين يحكم هو باسمهم وبالوكالة عنهم ، وهم آلهة وادى النيل

ـ لكانى بفرعون أول من حكم بالحق الالهى المقدس ؟..

ـ ولا مراء ! فقد كان الأمر كله من قبل دينا ، وكان كله للآلهة .. فالآلهة فى العالم القديم كانت مصدر السلطات، أما اليوم فمصدر السلطات جميعها هى الأمة ...

ـ مولاتى !.. أحسرة على هذا المآل ؟

ـ لا وربى !.. وانما هى الحسرة على حالنا القديم ، فقد كنا ملوكا مرهقين بالمسئولية ، لأن المسئولية دائما على قدر الحق والسلطة . أما اليوم ، فما أهون العبء ، وقد صار الناس هم الملوك المسئولون عن ولاية أمرهم ، وولاة أمرهم

ـ ولكن مولاتى ، أى شىء يســـتطيع فرعون أن يؤديه للآلهة ، وما مظهر أدائه حقهم ؟٠٠

ـ انظرى حولك على ضفتى هذا النيل ، ترى الهيـاكل والمحاريب ، وبيوت الأرباب والربات ٠٠ تلك هى تحيـة ملوك مصر القديمة لآلهة مصر القـديمة ٠٠٠ فكل فرعون يقدم ـ على قدر وفائه وتقواه ـ من تلك الصروح ما استطاع، وعليه فوق هذا أن يتعهد بناء السلف بالترميم والاصـلاح والتعمير ، حتى تظل بيوت الآلهة قائمة مزدهرة موســعا عليها فى الارزاق ، بما يوقف عليهـا من الاموال والضياع والهبات

ذو الدارين

فقلت للملكة :

ـ ان لأبيك امنحتب الثالث ، فى ذلك ، باعا طويلا ، فهو من أبر الفراعنة بالأرباب ٠٠٠

ـ هذا صحيح ، ولاسيما آمون ٠٠٠

فقلت كالمازحة :

ـ ولكن هل نعد بره بالاله آمون تقوى وتدينا ، أم برا ومحاباة عائلية ؟ أليس قد زعم للناس انه ابن آمون ، تراءى لأمه وأودعه أحشاءها فى صورة البشر ؟٠٠

فابتسمت الملكة وقالت :

ـ هما الأمران معـا ، فهى تقوى ، وهى بر بنوى ٠٠٠ ويرجح هذا الظن ، أنه تخير تحية آمون على اعتبار أن الولد سر أبيه ، فتخيل أن ما يطيب له سيطيب لأبيه ٠٠٠

وزادت ابتسامة الملكة الحسناء وهى تستطرد بعد لحظة :

ـ وكان أبى مولعا بالنساء ولعا شديدا ٠٠٠ فغير عجيب على هذا القياس أن يهتم بسعادة أبيه والاهه آمون من هذه الزاوية بالذات

فأخذتنى الدهشة ، وقلت فى لهجة الانكار :

ـ ما تقولين يا مولاتى ؟ ان الاسطورة تنسب حمل والدة أبيك الى فعل آمون ، فهل ترى والدك العظيم كان يقدم الى آمون « ضرات » لأمه من بنات الناس ؟ انها لخدعة أخرى باطنها سر رهيب ... هو متاع فرعون بالنيابة عن آمون بهاتيك النساء ...

فضحكت نفرتيتى ، وقالت وهى تقرص خدى :

ـ وهل كان أبى بحاجة الى هذه الخرافة أو الاسطورة ليمتع نفسه بما يشاء من النساء ؟ كلا !.. فالمتاع بالنساء لا يحتاج الى هذا العناء الذى اضطر اليه فى سبيل ارتقاء العرش

ـ ماذا اذن كان يفعل لأبيه أو الاهه ؟

ـ شيئا يسيرا جدا لو تعلمين .. فهو قد تصور أن أهم ما يشغل والده هو عرائسه ، قياسا على نفسه ، فبنى له ديار الاعراس ، ومنازه الحريم . ولاسيما لزوجته الكبرى المعبودة « موت » ، التى تضارع مكانتها فى حريم آمون مكانة والدتى « تى » عند أبى . فجعل لها قصرا فى الكرنك بالغ الرونق والبهاء . وجعل لآمون زورقا فاخرا مغطى بالذهب الخالص ينتقل فيه كل عام من قصره الرسمى الى معبد الاقصر حيث يفرغ لحريمه حينا

ـ ما أظن تلك العادة ترجع الى أيام والدك ؟..

ـ بل هى تسبقه طبعا .. ولكن المهم أن أبى عنى بهذا كثيرا ، فرتب له الزورق ، والقصر الذى يمتع فيه نفسه بلذة الهوى ... أما المناسبة نفسها فقديمة جدا ، ولم يرتجلها الكهان اعتباطا ، بل فى موسم الفيضان ، فى شهر « بابه » رمزا الى زواج النيل بأرض الوادى زواجا يجنى الناس منه الخصب والخير العميم ... وقد افتن أبى فى بناء

القصر فجعله واسع الارجاء فسيح الرحاب ، وزخرف كل موقع للعين فيه من السقف الى الارض الى الجدران والعمد بروائع الفن الزخرفي الفرعوني ، وعني بتذهيب الابواب ، وأعلى برجه الى عنان السماء • ولم يكفه هذا فجعل الطريق بين قصره الرسمي في الكرنك وقصر الحريم في الاقصر شيئا فذا في تاريخ العمارة • فعلى الجانبين تماثيل سباع لها رؤوس كباش !•• السباع رمز القوة في النزال والنضال والكباش رمز آمون نفسه ، لانها مضرب المثل في الخصب وقوة الانسال • وبذلك تجمع تلك التماثيل بين القدرة على الدفاع ، والقدرة على المتاع•••فهي تحية بلغة ذلك الأوان وان اختلف مدلولها باختلاف الزمان !••

ـ يا لها من رموز ، ويا لها من تحية !••

ـ تلك يا بنية أول واجبات الملك نحو الآلهة ، وذلك بعض ما قام به أبي •• خصصته بالذكر لأنه أظهرها وأكثرها دلالة على تكوين طبعه • أما سائر واجبات فرعون فهي الحكم •••

ـ هذا طبيعي يا مولاتي ، ولكن كيف يحكم ؟•• انني لأعجب كيف يتسنى لحاكم فرد مثله أن يزن الأمور ويحكم التدبير ، وكيف لا تودي بحكمته غواية السلطان وغروره !؟

ـ رويدك ! فان حكومة فرعون موضوع وهم طائش شاع في الناس بغير مبرر •• أجل انه وكيل الآلهة على الوادي ولا شريك له في ذلك المقام السامي • ولكنه ليس حاكما مطلقا •• كلا ، بل هو على النقيض من ذلك •••

فندت مني كلمة ساخرة قاطعت بها الملكة دون أن أتنبه لها :

ـ لعله كان ملكا دستوريا اذن ؟••

فنظرت الى الملكة نظرة جد ، وقالت بكل وقار وثقة :

ـ وكذلك كان فرعون فعلا ، فهو أول ملك دستورى فى تاريخ العالم !

ـ وى ! ان هذا لعجيب ... وعفوك اذا قلت انى لو لم أسمعه منك ياصاحبة الجلالة لما أعرته اهتمامى وتصديقى ..

لباب الناموس

فقالت نفرتيتى فى هدوء وأناة :

ـ أعيرينى سمعك ... وحاولى أن تتصورى الأمور بالعقل لا على ضوء ما ملأ الناس به أذنك من الاخطاء والاوهام

ـ انى مصغية .. فهاتى ..

ـ ما معنى الدستور ؟ انه النظام الاساسى الذى تقوم عليه قوانين الدولة ، فلا تكون ألعوبة لذى هوى ... أليس كذلك ؟

ـ بلى .. هو كذلك

ـ ولم تكن دولة عريقة كمصر خالية من ذلك القانون الأساسى الذى ينظم سياسة مصالح الأمة . وانما يخطىء الناس فيحسبون أن مصر لم تكن بلدا دستوريا ، لانهم يخلطون بين النظام الدستورى اطلاقا ، والنظام الديموقراطى على وجه التحديد . فقد تكون الدولة دستورية ولكنها غير ديموقراطية ...

ـ ما أصدق هذا يا مولاتى ، وان غفل عنه الناس

ـ وغفل عنه شاعر منكم ، فقال يعير فرعونا من أسرتى قائلا :

فؤاد أعز بالدستور دنيا
وأعظم منك بالاسلام دينا

فأما الدستور ، فلكم أن تفخروا أن مصر القديمة كانت

على الدوام بلدا دستوريا ، فلم يحكمها طاغية مطلق السلطان قط ! وأما الاسلام يا بنيتى فأنعم به وأكرم ٠٠ ولكن ما ذنب فرعون ؟ وهل كان عليه أن يعتنق الاسلام قبل بعثة نبى الاسلام ؟٠٠٠

ــ مولاتى ! انه قول شاعر على مذهب القائلين : ان أعذب الشعر أكذبه ٠٠ ولكنى مشوقة الى معرفة فحوى دستور مصر القديمة ٠٠٠

ــ ذلك يا بنيتى هو « الناموس » ٠ فالسلطة فى مصر مشتقة من الدين ٠٠ وفرعون يحكم باسم الآلهة لانه وكيلهم أو من ذريتهم ٠ والدين ــ ولاسيما الديانات القديمة ــ ينظم كل شىء فى حياة الناس والجماعة بطقوس وعقائد لا سبيل الى التحرر منها ٠ ففرعون أول من يخضع لها ، وبها يسوس الناس ٠٠ وكل شىء فى حياته الخاصة والعامة ترسمه له أوامر الدين ونواهيه ٠٠٠

ــ أفلا يقول : اقتلوا فلانا ، فيقتل ٠٠٠ أو : أطلقوه ، فيطلقونه ؟٠٠

ــ يقول ، ولكن لا اعتباطا ، بل بحسب الناموس ٠ فالناموس ينظم وظائف الدولة وسلطاتها ، ويفصل بين سلطة الادارة أو التنفيذ ، وسلطة القضاء ٠٠ وأما سلطة التشريع فذلك هو ناموس الآلهة الذى يتولاه الكهنة بالتفسير والتعديل حسب مقتضيات العصر

فى مصر نظام

ــ عجبا ٠٠ ألم تكن أموال مصر كلها أموالا خاصة لفرعون؟

ــ أين يذهب بك وهمك يا فتاة ؟ أتظنين فرعون قاطع طريق يجمع المال غصبا من الناس كما يتراءى له ؟ كلا وأبيك ! ففى مصر دولة ونظام ، ونصيب معلوم من الاموال للآلهة ولبيت المال ٠٠٠ وهناك رجال أمن يقومون على

النظام ، وجباة يحاسبون على ما يجبون من الخلق حسابا عسيرا …

ـ لقد كان له وزراء اذن ؟…

ـ ان لم يكن لفرعون الوزراء ، فلمن يكونون ؟.. لقد كانت السياسة شيئا عريقا فى مصر ، فكان فيها طراز من رجال الدولة يعتمد عليهم فرعون ويحترمهم ويصغى لنصحهم وساقول لك خبرا يدهشك حقا .. ان انجلترا تجعل وزير العدل أو قاضى القضاة مقدما على جميع الوزراء ، ومرتبه أكبر من مرتب رئيس الوزراء …

ـ هذا صحيح …

ـ انهم مسبوقون فى هذا … فكذلك كان وزير العدل على عهد الفراعنة !

ـ مرحى ! مرحى !

ـ وأكثر من هذا يا بنت هذا الزمان ، هناك حكاية يتشدقون بها اليوم ، هى « اللامركزية »

ـ أجل ..

ـ وفى هذا أنتم أيضا مسبوقون ، مسبوقون بآلاف السنين ! فكل وال فى ولايته فرعون صغير ، تتبعه سلطات قضائية وادارية ومالية وكهنوتية . ولكل ولاية مراسم الاهها الخاص ـ وهى فى مجموعها وجوهرها متقاربة ـ ومجلس شوراها الذى يرجع اليه الأمير فى أمور الاقليم . وكانت تتبع المعابد الكبيرة مدارس يتعلم فيها الموظفون ناموس الدولة ، وحقوق الناس وحدود المعاملات ، حتى تكونت مع الزمن « بيروقراطية » مصرية ، وطبقة وسطى من الموظفين تطاول طبقة الاعيان …

وعندئذ غلبتنى سليقة « المعابثة » فقلت مازحة :

ـ لم يبق يا مولاتى الا أن تقولى انكم عرفتم فى زمانكم قانوننا الحديث : « من أين لك هذا ؟ »

وبكل جد ووقار قالت الملكة :

ـ وهذا أيضا عرفناه بالتأكيد ٠٠ فكان المتهم بالاختلاس يسأل عن مصادر غنـــاه ، كما يسأل عن غنى ذوى قرباه وامرأته وبنيه !

ـ مولاتى ٠٠ لا أدرى أى الشعورين يغلب عـلى نفسى : شعور الفخر بالاجداد الميامين ، أم شعور الخجل من الحاضر المتخلف ٠٠

ـ لا عليك ٠٠ فهناك شىء يحق لك أن تفخرى بأن زمانك لم يتخلف فيه عن زمانى

ـ اسعفينى به مولاتى ٠٠ ما هو ؟

ـ ذلك يا بنية هو نظام القضـــاء المصرى ٠٠ فقد كان دائما فى مصر قضاة ، وقضـــاتكم اليوم جديرون بآبائهم الاولين على عهد الفراعين ٠٠٠

ـ ان قضاءنا قبس من شرع الله ، ومن نظم الغربيين ٠٠٠

ـ وقضاؤنا نحن كان قبسا من دولتنا الدســتورية ، لا فضل فيه لأحد علينا من العالمين ٠٠٠ وانه لعمرى لقضاء متين ٠٠٠

ـ زيدينى بيانا يا جدتى يا ذات الجلال والجمال ٠٠٠

ـ أول ما يلفت النظر هو التقارب بين تقاليـــد قضائنا القديم وتقاليد قضائكم الحديث ٠٠ فالقضاة ورجال العدل مهما صغرت وظائفهم يعيشون دائما بمعزل عن النـاس ، وتحرم عليهم التجارة وتبادل المجاملات والهدايا ، لضمان الثقة فى ضمائرهم ، ولتمام النزاهة وكمال الهيبة ٠ فالعدل أساس فى الدين عندنا ، والحساب والعقاب فى الآخرة ركن أساسى من أركان الدين ٠٠٠ كما يحرم على القضاة استغلال

النفوذ ، فلا يذهب أحدهم الى السوق بنفسه مشتريا حتى لا يحرج الناس فيبيعونه بالبخس تزلفا أو خوفا ...

ـ ان هذا والله لغاية الكمال فى تقاليد القضاء ...

ـ ولا تحسبن عين فرعون وخاصته غافلة عن أحـد .. فاذا ثبتت تهمة عـلى قاض أو رجـل من رجال الضبط والتحقيق كان عقابها جدع الأنف ، ليكون عبرة وسخرية بين العالمين ...

ـ ذلك يا مولاتى فظيع ...

ـ ولكنه فى عين العدل ليس أفظع من الرشوة وفساد الذمة واستغلال النفوذ على حساب الضعفاء والمساكين .. فحماية هؤلاء أوجب على ولى الأمر من حماية أنوف خدام الدولة الخائنين الامانات والعهود..واستغلال ضعف الفقراء وفقرهم أشنع جريمة يقع فيها موظف عام

ـ وهل كان ذلك مرعيا فى شئون الرزق وجباية الاموال الأميرية ؟..

ـ ولا مراء .. فقد كان منصوصا فى التعليمات المالية على التنازل عن ثلثى الضرائب المتأخرة اذا كان المدين فقيرا معسرا ...

ـ ليس بعد هذا عدل ولا رحمة ...

سواسية كأسنان المشط

ـ بل خير من هذا يا بنت هـذا الزمان أن الناس عندنا كانوا أمام القانون واجراءات القضـاء سواسـية كأسنان المشط ...

ـ حتى علية القوم والخاصة منهم ؟

ـ نعم حتى الأكابر والخاصـة ! ولو كانت فيهم بنت فرعون أو زوجه أو أخته .. فلا محكمة لهم خاصـة ، بل

لا يطلب فرعون عقد المحكمة فى مجلسه أو تحت رئاسته . . كما قد يحق له فى جرائم الخيانة العظمى ، وقد سلفت فى التاريخ الفرعونى محاكمة قوم من بيت الملك بجرائم غير عامة ولا تتعلق بنظام الدولة وأمنها ، فجرت المحاكمة أمام القضاء العادى

ــ مرحى . . مرحى . .

ــ وحقوق الدفاع مكفولة كل الكفالة لكل متهم مهما كان جرمه . . ولكن الضرب الموجع كان من أدوات التحقيق اللازمة فى تنظيم الجنايات ، وأحسب ان هذا شىء قد برئتم منه يا حفيدتى . . .

فتنحنحت كأن شيئا يشغب فى زورى وغيرت مجرى الحديث :

ــ ولكن أين كانت تعقد المحاكمات ؟ فى العلن أو فى الخفاء ؟

ــ كثيرا ما كانت المحاكمة تعقد فى موضع الجناية ، حيث تؤثر ظروف الجريمة على أعصاب الجانى فينهار انكاره ويعترف . . ولكن العلانية لم تكن شرطا للمحاكمة ، لأن السلطة لا تستمد من جمهور الأمة ، فلا محل للرقابة الشعبية . أما العقاب فتتوخى فيه العبرة ، ولذلك كثيرا ما يكون على رؤوس الأشهاد . . .

▭

وقلت لنفرتيتى :

ــ آمنت يا مولاتى ان فرعون لم يكن طاغية على قومه ، وان التقاليد الدستورية كانت راسخة فى وادى النيل على عهد الآباء الأمجاد

ــ بل انه لولا غرور المنصب لفر الفراعين من قيود حياتهم ، لأنهم كانوا مقيدين « ببروتوكول » دقيق فى كل

شيء ... ففي بكرة الصباح يستيقظ فرعون فيقرأ البريد، ثم يستحم ويرتدي شارات الملك ، ويقدم القرابين للآلهة . ويصغي لصلاة يتلوها كبير الكهان .. ثم يوزع ساعات النهار بين المقابلات الرسمية والنزهة والصيد .. وهو في ذلك كله محوط بالحاشية ، وبهالة المنصب الرفيع ، فلا يتحرك حركة الا بمقدار يقدر لها من قبل ...

ـ ما أعجب مصائر البشر .. يظن الواحد منهم أنه ملك الناس ، فاذا الناس يملكونه ، حتى فرعون ! فهو لا يعدو أن يكون « موظفا عاما » بل « مجندا » تحت التاج لخدمة أمة ، يحسب هو ويحسب الناس انها ملك يمينه !..

ـ هذا صحيح .. ولكن لا تنسى يا حفيدتي أن هذه الأعباء الجسام يتفاوت الملوك والفراعين في صدق النية والجهد للنهوض بها ، فمنهم من ينهض بها خالص القلب لها ، ومنهم من يخلبه البريق واللألاء ، فلا يحمل من تلك الأعباء ، الا القدر الذي ييسر له المتعة بأبهة العرش وجاه الملك ...

أبهة الملك

اذا فسد الناس

قلت للملكة بعد هذا :

ـ ان الواجب وقيام الناس به أمر حير الخلق منذ زمن بعيد . بل هو أكبر هموم المصلحين والدعاة .. ولكن المشكلة الكبرى فى هذا الموضوع ، هي ان فريقا من الناس يقول : « أصلح الراعي تصلح الرعية » .. وفريق غيرهم يقول : « أصلح الرعية يصلح الراعى »

فضحكت نفرتيتى وقالت :

ـ ما أشبه هذا فى ظاهر الأمر بالاشكال القديم « أيهما اسبق فى الوجود : البيضة أم الطائر ؟ » .. ولـكن الامر فى موضوعنا أيسر من البيضة والبائض . فلا شك أن الجماعة أسبق الى الوجود من القائمين عليها . ففساد الناس ينجم عنه فساد الحكام . أما الحاكم الفاسد فى الأمة الصالحة فأمر لا يقوم ، واذا قام لا يستقيم ولا يدوم .. فلا فساد الا بالتواطؤ الضمنى بين الحاكم والمحكوم

ـ وشبهة أخرى يا ذات الجلالة ..

ـ هاتيها

ـ القوانين .. اليس صلاحها ضمانا لصلاح الحال ، لأنها تقيد ولاة الأمر بقيودها ، وتحملهم على الحذر من الوقوع تحت طائلها ؟.

ـ قول مردود .. فليست القوانين مجدية بغير الضمائر ورقابة الاحساس الخلقى فى الجماعة الواعية .. وقد صدق ذلك الحكيم الاغريقى الذى تلا زماننا بزمان طويل ، حين قال

ان خير القوانين يفسد فى الجماعة الفاسدة ، وأسوأ القوانين لا يضر ــ اذا لم يصلح أمره بالتطبيق ــ فى الجماعة الفاضلة

ــ العبرة اذن بالأخلاق ..

ــ اجل .. ولكن حذار من فهم الأخلاق على صورتها السلبية

ــ وما الأخلاق السلبية ، وما الأخلاق الايجابية يا مولاتى ؟

ــ الأخلاق السلبية هى التى تقوم على « الامتناع » عن الاعمال المرذولة . فالشرف فيها عدم الزلة .. والامانة فيها عدم الخيانة ، والخير فيها عدم فعل الشر ...

ــ سمعنا ووعينا .. فما الأخلاق الايجابية اذن ؟

ــ هى تلك التى تقوم على « فعل » الفضيلة وممارستها ، ولبابها كله هو حمل المسئولية والاخلاص فى أدائها ... والشجاعة فى محاربة الفساد ، والصلابة فى الصمود لغواية الشهوات التى تضر بالجماعة . فلا أخلاق بغير مسئولية ، ولا فضيلة بغير شجاعة وانكار للذات

ــ كل هذا جميل .. ولكن كيف تكون المسئولية بالنسبة لفرعون وهو مصدر السلطات ؟..

ــ على رسلك .. انه مصدر السلطات بوصفه وكيل الآلهة ، فهو مقيد بالناموس ..

ــ ولكن اذا قلنا ان فساد الجماعة هو علة فساد الحكام ، تعارض ذلك مع القول بأن فرعون لا حساب عليه من الأمة . فانما يحسب حساب الرأى العام من يخشى غضبته ويعتمد على ثقته ...

ــ ليس هذا صحيحا وان بدا أنه صحيح ... فانه ما من انسان مهما علا مقامه يعيش مستقلا عن جو المجتمع وقيمه الخلقية ، فهو متأثر بها لا محالة ، منساق اليها فى الغالب الأعم . يضاف الى هذا أن كل انسان محتاج الى الشعور

بتقدير الناس له ، فلا يستطيع أحد ان يضرب بذلك التقدير عرض الحائط ، سواء كان هذا التقدير عن حب أم خوف .. ومن هنا كان فساد الناس وانحطاط مستوى قيمهم الخلقية شرطا أساسيا لفساد الحكم وهبوط مستواه

ـ ذلك لعمرى فصل الخطاب ...

ـ وفيه تعليل التحول الذى بدا واضحا فى عهد أبى امنحتب الثالث .. فقد تحول الملك من الجد الى الزهو والأبهة والتقلب فى النعيم . ولكنه لم يصل الى حد الاستهتار التام ، وما كان ممكنا أن يصل الى هذا أبدا ...

ـ ولماذا ؟

ـ لأن الحكومة لا تفسد جزافا ، بل بقدر فساد الزمن . فأمام فرعون ناموس قائم ـ وان كان التساهل فى ظروف الانحلال ممكنا ـ وكان أمامه سلطان الكهنة وأمراء الأقاليم .. ثم ان الأبهة نفسها تلزم صاحبها بنوع من الكرامة والترفع ـ تسمونه الارستقراطية بلغة هذا العصر ـ يغنى عن الغيرة الحقيقية على مبادىء الأخلاق والصالح العام ..

ـ قصارى القول اذن يا مولاتى ان عصر أبيك كان عصر تحول عن العمل الى الترف ، ومن الخدمة العامة والبذل فى سبيل الجماعة الى المنفعة الذاتية وتكالب على المغانم واللذات

ـ ذلك كذلك وا أسفاه !..

اعتاب فرعون ..

وأطرقت الملكة حينا ، فلم أرد أن أعكر عليها صفو تفكيرها ، الى أن رفعت رأسها ، وصعدت آهة تنبى عن حسرة ، فقلت :

ـ ما خطب مولاتى ؟

ـ لا شيء .. انه الحديث يا بنية ، والحديث ذو شجون .. فقد تذكرت ملاعبى فى طيبة ، وفى أرباض مدينة حابو على

يمين النيل ، وفى منف حاضرة جيش فرعون اذا هجرت حرارة الصيف ...

ـ رعى الله مولاتى ... اهو الحنين الى الصبا الفينان ؟

ـ اجل ... ففى تلك الملاعب من ساحات قصور فرعون ابى ، او اعتاب فرعون كما كان يدعوها الناس ، نشأت بين البر والحنان والتعظيم ..

ـ وكيف كان مقامكم بها ؟

ـ اطيب مقام ! ففى اوان الشتاء كان مقر ابى الرسمى فى قصره الملكى بطيبة ، التى جملها وعمرها حتى صارت اجمل عواصم الدنيا حتى ذلك الزمان . وجعل قصره فيها تحفة فى الأبهة التى تخشع لها القلوب .. ولكن امى « تى » كانت تكره الاقامة بذلك القصر ، لثقل الهواء فى المدينة الكبرى ، او لكراهتها جو القصر الرسمى الحافل بالضرائر والحظايا ، فابتنى لها ابى قصرا على يمين النيل ، حيث الهواء النقى فى حضن الجبل ...

ـ اعن يمين النيل تقولين ؟.. اليست الضفة اليمنى مدينة الموتى يومذاك ، بل هى كذلك الى اليوم فى بلاد من الصعيد ... مثل المنيا من اعمال الأشمونين ؟..

ـ اجل .. كانت الضفة اليمنى مدينة الموتى ، ولكن ابى لم يأبه بالتقاليد وابتنى لأمى قصرا ريفيا فى ذلك المكان ، تحيط به حديقة غناء ، فجاء آية فى الترف والابداع الفنى ، مع بساطة تشيع الهدوء فى النفس ، وتوخ للظل ورطوبة انفاس الهواء تحت السقائف والعريشات ... اما الرسوم التى تغطى الجدران فلا حد لروعتها وما تسببه للنفس من راحة وانطلاق ... ومن اسف انه قد عفى عليه الزمن ، كما عفى على قصرنا الرسمى فى طيبة ..

ـ اجل ، لقد زالت من الوجود ديار الفراعنة ، ولم تبق الا قبورهم ...

— ولا عجب يا بنية !.. فقد كنا قوما نؤمن بالحياة الخالدة بعد الموت ، وعودة الروح الى الجسد ، وكنا نعلم ان هذه الحياة الدنيا لا بقاء لها ، ففيم انفاق الجهد والمال فى بناء الدور لحياة لا تدوم ؟ خير من ذلك بناء قبر يقاوم الزمن لحفظ ذلك الجسد الى ان تعود اليه الروح ولو بعد ألوف السنين ... لذلك كانت أعتاب فرعون ، أو قصوره التى يقيم فيها للحكم أو للاستجمام من اللبن كسائر بيوت أهل النعمة من المصريين ، ولكن زخرفتها وزينتها ووسائل الراحة فيها كانت شيئا يفوق التصور فى بذخه وجماله ... وهو واأسفاه جمال وبذخ لم يكتب لهما الدوام ...

— كان اذن قصر « تى » الصيفى من اللبن ايضا ، على أبهته وروعته ؟..

— أجل .. ولم يدخر ابى وسعا فى توفير أسباب المتعة فيه . فقد شكت اليه أمى الملكة يوما من جفاف الهواء وسخونته ، فأمر أن تحفر بجانب القصر ، فى مهب الريح ، بركة هائلة طولها ٣٧٠٠ ذراع ، وعرضها ٧٠٠ ذراع فلا تضيق بسخونته وجفافه أمى الملكة الكبرى « تى » . ثم جعل على البركة زورقا مصفحا بالذهب الخالص ، ليذرع فيه البركة مع أمى فى هداة الأصيل ، ترويحا عن النفس فى ذلك المحيط الطبيعى الرائع بجباله وصمته العميق ...

— ذلك كان منتجعكم للراحة فى أيام الشتاء ، اذا آدكم قصر طيبة .. وأين كان مصطافكم اذا هجر الصيف فى « منف » ؟

— فى قصر منف ، الذى بناه لأبى وزيره القائم على الجيش ، فافتن فى رفع عمده وتزيين أسواره وأبوابه ، ليكون لائقا بالقائد الأعلى لأعظم جيش فى الدنيا ...

— تلك هى « الجدران » .. فما خبر السكان ؟

— مئات من الحور العين ، من بنات الملوك والامراء فى الشمال

والجنوب ، ومئات من الخدم والعبيد ، فى أزياء بلادهم المتعددة الالوان والطرز . وأما الأثاث فكان آية فى دقة النقش ، وجودة الأخشاب ، فلكل قاعة مقاعد من طراز خاص ، تلك للأمراء ، وهـذه للوزراء ... فما أكثر تفنننا فى المقـاعد والأسرة ، منها ما يعد للاستقبال ، وما يعد للرحلة والقنص ، وما يعد للراحة ، وما يخصص للطعام

زينة فرعون

ــ كل ذلك يا مولاتى نقدره ونتصوره ، ولكننى أشتاق أن أرى يوما من أيام فرعون فى قصره ، بين النعمة والنعيم

ــ هو على هين .. فاتبعينى ، مغمضـة العينين ، ولا تسالينى الى أين ، ولا تفتحيهما حتى آمرك ..

واغمضت عينى ، فلمستنى من جانبى راسى بيديهـا ، ووضعت ذراعها حول خاصرتى ، فكأننى طرت فى الهواء ، أو هبطت واديا مسحورا لا يحس له جرس ولا يسمع فيه حس . ثم سمعت صوت نفير ، وقرع طبل كبير ، وصيحة كصيحات الحراس ، ثم قالت لى الملكة :

ــ الآن افتحى عينيك ، واطمئنى فسوف لايراك ولا يرانى ولا يسمعنا أحد ، وان كنا نسمع ونرى ونفهم على غرابة اللغة ...

ــ وما صوت النفير الذى سمعت ؟..

ــ نوبة الصباح فى قصر طيبة

وقلبت طرفى من حولى .. فاذا عمد رشيقة القد سامقة الطول ، عليها نقوش وزخارف ، وصور صـيد ، وفتح ، واسرى تقاد ، وفرعون على عرشـه يتقبـل منهم الولاء والخشوع .. وبهو واسع الأرجاء ، عليه سقف تتوسطـه فتحة مربعة من فوقها عريشة تمنع هاجرة الشمس وتسمح للنور بالنفاذ .. واستولت على الروعة مما أرى ، حتى

نبهتنى نفرتيتى ، وفى صوتها غنة حنين ورقة لملعب الصبا :

ــ الآن صحا فرعون .. وهو فى هذه الحجرة عن اليسار ، يتزين ويرتدى ثيابه ويستعد للقاء الناس ، فى يوم من أيام فرعون الحافلة ..

وتبعتها ، فاذا فرعون عليه قميص رقيق ، وقد حف به نفر من كبار دولته ورجال حاشيته ، وقد انحنى على يديه عامل يسوى اظافرهما ، وعلى قدميه عامل آخر يشذب اظافرهما ، وعند رأسه حلاقه الخاص يحلق له راسه فلا يترك فيها نابتة من الشعر ، ويحلق له لحيته وشاربه . وهو يجاذب رجاله ونفرا من حريمه أطراف حديث عن بريد الشام وبلاد النوبة .. ثم وضعوا على جسده زيه الملكى

ولم يكن ذلك الزى افخم وابهى من زى الأمراء وقواد الجيش فحسب ، بل كان مرعيا فيه ابراز ما للابسه من مقام لا يعدله مقام .. فلا يمكن ان يظهر فرعون للناس عارى الراس .. كلا ! بل يلبس شعرا مستعارا كذلك الذى يلبسه قضاة انجلترا فى هذا الزمان ...

ــ الا يضيق الملك بهذا الشعر المستعار يا مولاتى ؟.. ان عزاءه على كل حال انه يخلعه عنه اذا خلا الى خاصته وآله

ــ على رسلك ! انى لم ار ابى عارى الراس ابدا ، فذلك تبذل لا يسمح به حتى أمام الأبناء .. اما اذا جاء وقت النوم فتلك مسألة أخرى . انظرى .. هذا هو تاج النيل ، تاج الشمال والجنوب يوضع على راس أبى

ونظرت ، فاذا التاج المزدوج وقد علا راس الملك ، وغطى الشعر المستعار الذى كان يعلوه ، ولكن كانت تتدلى منه على العارضين شعرات تصله بلحية طويلة مستعارة ، كلحى الآلهة ...

ــ أيلبس هذه اللحية دواما ؟

ـ كلا !.. انه لا يلبسها الا حين يرتدى التاج ، لعمل من أعمال « التشريفة » الكبرى .. اما فيما عدا ذلك فلا لحية ولا تاج . انظرى !.. لقد لبس فرعون ثوبه المعد للحفلات والمراسم ..

ونظرت فاذا ازار كثير الثنيات الرفيعة « بليسيه » تتوسطه منطقة ، عليها شعار فرعون فى « خرطوشة » جميلة النقش ... وفى قدميه نعل خفيف مكشوف مجلى بالذهب

وكانما بدا على وجهى اننى كنت انتظر شيئا خيرا من هذا ، فقالت نفرتيتى :

ـ صبرا ، ليس هذا هو اهم ما فى زى مولانا .. هاك !..

وتطلعت ، فاذا حلى تخطف الأبصار بسناها وبديع صنعها ، أهم ما فيها قلادة فاخرة كثيرة الصفوف بعضها من لؤلؤ وبعضها من ذهب ، ولها فوق العنق من خلف قفل على هيئة راس الصقر ، والصقر من آلهة المصريين المعبودة . وكان الصف الأخير من لآلىء القلادة يشبه الدموع فى صفائه ورونقه وشكله العام ...

ولم أملك نفسى أن أهتف :

ـ ما أبدع هذه القلادة وما أروعها !..

فابتسمت نفرتيتى ابتسامة خفيفة ، وقالت :

ـ آه لو لبستها يا بنية ...

ـ أهذا ممكن ؟..

ـ تعالى البسك مثلها .. ففى خزانة فرعون عديد من القلائد

وصحت دهشة ، فقد كانت القلادة ثقيلة جدا ... فقلت :

ـ وى ! هذه والله نير ثقيل وليست قلادة ملك !

وابتسمت ابتسامتها الحزينة مرة أخرى ، وقالت :

ـ كذلك كل شيء يتصل بالملك ، ظاهره مرموق محسود ، وباطنه يستحق الشفقة ، وتنوء به الكواهل الشداد .. ولكن لا يشغلنك الحديث عن بقية المشهد ، فليست هذه القلادة التى تزن بضع أقات كل ما سيسير به ابى المسكين من اثقال !..

ونظرت ، فاذا فرعون وقد زادوا عنقه أثقالا بلوحة من ذهب مصوغة على هيئة واجهة المعبد المقدس ، مدلاة على صدره الملكى تحت القلادة بسلسلة ثقيلة مزدوجة ! ثم شدوا كل ذراع من ذراعيه باسورتين ضخمتين احداهما قرب الكتف ، والأخرى عند المعصم .. وجعلوا عند كعبيه اسورتين من طرازهما ..

واخيرا ، وضعوا على منكبيه رداء طويلا من نسيج شفاف ، قصير الكمين ، يضمه عند الوسط حزام آخر مرصع بالشعار الملكى من أمام ...

وبذلك تمت زينة فرعون ...

فى قاعة العرش

وانتقل فرعون بعد ذلك الى قاعة عرشه الكبرى يحف به الملأ من رجال القصر والوزراء .. كلهم فى عنقه قلادة ، يختلف طولها ومعدنها وكثرة أفرعها بحسب منزلته فى الدولة . فقد كان اليوم مخصصا لاستقبال السفراء ...

وجلس فرعون فوق عرشه الفاخر المصنوع من خشب الأبنوس ، والمرصع بنقوش فاخرة مذهبة فيها حجارة كريمة من الزمرد واللازورد . والعرش فوق منصة عالية فى صدر القاعة الفسيحة السامقة العمد ، التى تغلب عليها البساطة النسبية ، لأنها أدعى الى الهيبة والاجلال

ومن وراء الملك حامل مروحته .. وهو أعلى رجال

الدولة مقاما ، فهو ليس مجرد حامل مروحة ! كلا ، بل هو اقرب الناس موقفا من فرعون ، وادناهم الى اذنه بالمشورة والنجوى فى كل أمر ...

وقالت الملكة وهى تشير الى حامل المروحة :

ـ الا تعرفين هذا الرجل السمح ؟

ـ اكاد اذكر اننى رايت له صورة فى كتاب ...

ـ انه جدى ، والد أمى الملكة تى .. صاحب المشورة والحظوة

وفى جانبى العرش ، على أرض الحجرة الحجرية ، وقف رجال الدولة كل عند رتبته ، مطأطئين رؤوسهم ... والحراس والحجاب عند أكناف الباب . وجلس القرفصاء قرب درجات العرش جماعة من الكتاب فى ايديهم الألواح والأقلام لتسجيل أوامر فرعون الملكية ، وما يجرى أثناء الاستقبال من الأقوال

ودخل أولئك السفراء ووراءهم حملة التحف والهدايا . وكانوا خليطا من ممثلى ملوك سوريا والنهرين واقريطش ، فتطامنوا بين يدى فرعون . وقدموا هداياهم الثمينة ، وأعربوا عن مودة ملوكهم واجلالهم لعزيز مصر .. فقام الكتبة بتسجيل الهدايا واحصائها ، ثم أضيفت الى بيت مال الملك ، بعد أن حمل جانب منها الى خزائن الآلهة فى المعابد الكبرى

وبعد ذلك تكلم فرعون .. فاهدى الى كل سفير هدية أثمن من التى جاء بها ، ليحملها الى مولاه . وأهداه هدية أخرى لشخصه ، لكى يعلم الجميع أن فرعون كجبل الذهب الذى يفيض على جميع البلدان ..

ثم تململ فرعون فى مجلسه ، فكانت تلك آية ارفضاض الاجتماع ...

وخف فرعون الى جناحه الخاص ، لينضو عنه ثوب التشريفة الثقيل ، وتاجيه الكبيرين ، وقلائده التى ينوء بها جيده الملكى ...

ولى النعم

فقلت لنفرتيتى :

ـ هل انتهت مشاغل فرعون هذا النهار ؟..

ـ كلا ... فبعد قليل ستبدأ حفلة أخرى

ـ أيستقبل سفراء أخر ؟

ـ كلا .. بل يستقبل نفرا من رعاياه المبرزين ، من عسكريين ومدنيين ، ففرعون من أهم صفاته لدى شعبه أنه « ولى النعم » ، يجازى المحسن ويجزل له العطاء كرما منه ، فهو يجمع الممتازين من رعاياه ، الفينة بعد الفينة ، لكى يقدم لهم العطايا والانعامات ...

ـ أهى حفلة انعامات اذن ؟

ـ أجل .. والأصل فى هذه العادة أن فرعون كان يجزى البواسل من جنده بالمال وقلائد الذهب اذا أظهروا شجاعة وبأسا فى ميدان القتال تشجيعا لهم ولغيرهم .. ثم عممت هذه البدعة ، فصارت تقليدا يتمتع به المدنيون أيضا .ذلك أن المصرى بطبعه محب للسلم ، مقدر للخدمات التى تقدم أثناء السلام لخدمة الدولة والحضارة . فليست الحروب الا ضرورة لصيانة السلام ، فهو مقدم عليها فى العناية والقدر

ـ ولماذا لاينعم فرعون على هؤلاء فرادى ، دون أن يكلف نفسه مشقة حفل رسمى ؟..

ـ لأن الحفل أبهج للمنعم عليهم ، وأكثر تنويها بذكرهم ، وأفعل فى حفز النفوس الى مجاراتهم والاقتداء بهم ..

ثم قادتنى نفرتيتى الى خارج القصر ، فاذا ساحة كبرى

يحف بها بستان ، واذا المنعم عليهم يقـــدمون وقوفا فى عرباتهم يقودونها بأنفسهم ، فالعــربات فى ذلك العهد لها عجلتان فقط ، ويقف فيها صاحبها وبيده عنــان الجواد .. فليس لعربة أحد جوادان ، خلا فرعون نفسه .. فصفت تلك العربات فى الرحبة ، وأعنتها بأيدى السياس ، الذين كانوا يتبادلون الاحاديث فيما بينهم ، وقد يجاذبون أطراف الكلام حراس القصر فى غير كلفة ، ابتهاجا بذلك اليـــوم الميمون ، وكل سائس يطرى مناقب مولاه ويعدد مزاياه ..

وكنت أشعر بغبطة غريبة وأنا أتجول بين هؤلاء الناس فأراهم وأسمعهم دون أن يرونى ويسمعونى ... حين نبهتنى من هذا الشعور نفرتيتى قائلة :

ـ انظرى نحو هذه الشرفة .. فحين يلتئم الجمع ، وتحين ساعة الحفل ، سيظهر أبى فرعون فى هذه الشرفة التى تفضى اليها قاعة ضخمة ذات عمد ، فيها موائد ونضد وصناديق ذات عدد ، صفت عليها أو فيها هدايا فرعون التى سينعم بها على رعاياه المحسنين ... ورجال الحاشية يحفون بها ، كى يقدموا لفرعون هدية كل واحد منهم متى جاء دوره ...

ورأيت تحت الشرفة القليلة الارتفاع رحبة نظيفة فيهــا أصص الزهر ، محوطة بسياج جميل ، ورجال التشريفات والأمناء يتولون تنظيم المنعم عليهم صفوفا بحسب الدور والأسبقية فى « البروتوكول »

وأخيرا ظهر فرعون فى الشرفة الملكية ، والى جواره الملكة تى ، ومن خلفهما والدها حامل المروحــــة الملكيـــة وكبير مستشارى الملك فى آن واحد ... فخر الجمع ســاجدين ، ثم تقدم أولهم فحيا الملك بذراعيه متقاطعين فوق صدره ، ودعا للملك وعدد مناقبه ، فرد عليه فرعون مثنيا على اخلاصه للعرش وحسن بلائه فى خدمته .. ثم ذكر المنصب الذى رفعه اليه جزاء ذلك الاخــــلاص ، وناوله هديته المنعم بها

عليه ، فأسرع رجال القصر بوضعها حـول رقبته ، لأنها قلادة كريمة تقوم مقام الرتب والنياشـين عندنا .. وقد تتعدد القلادات فى المرة الواحـدة ، فيبلغ عددها ثلاثا أو أربعا من الذهب الخالص ، ثم يلقى اليه فرعون بهدايا أخرى من الذهب ، قوامها كئوس من خالص النضار .. ويصرف له جانب كبير من الاطعمة الملكية والنبيذ الملكى ، يحمله من خلفه أتبـاعه وهو منصرف من البـاب بين تحايا الموظفين والحراس والسياس ، فيستقل عربته الى داره ، يحف به أصدقاؤه وأولياؤه ، الذين يزيد عـددهم كلما تقـدم فى المسير ، حتى يضحى موكبه مظاهرة صاخبة عند وصوله الى الدار . فتستقبله امرأته وجواريه بالزغاريد ، وتقام مأدبة حافلة فى تلك الليلة السعيدة ...

ويتوالى فى القصر تقديم الانعـامات من ولى النعم ، حتى ينتهى الحفل ، وقد عم السرور كل انسان..وسجل الكتبة فى سجلات القصر تلك الانعامات مفصلة فى اسهاب

التابع والمتبوع

سيد العالم

وانصرفنا من ذلك الحفل الحافل ، فاتخذنا مجلسا تحت صفصافة على الشاطىء من حديقة قصر « سيد العالم » .. ولمحت على وجه نفرتيتي شيئا من الزهو بهذا الذى شهدنا ، فقلت كي احفزها على الكلام :

ــ لقد آثرتني مولاتي بشرف صحبتها الى زمانها ، فمالى اراها بمعزل عنى فى خلجات الشعور وسوانح التفكير ؟

ــ حاش !.. ولكنه شيء من الزهو وشيء من الحسرة

ــ أحسرة على ما فات ؟..

ــ بل حسرة لما فات ، وعلى ما جد فى أعقابه من الآفات . ففى ذلك الزمان الذى نشهده الآن ، كان فرعون سيد العالم واعظم بنى الانسان ، وكانت مصر قصبة الدنيا وقبلة البلدان .. سيادتها على ضفتى الوادى لا يجتزىء منها مجتزىء ، ولا يجترىء عليها مجترىء... فالسودان ومصر شيء واحد وعروة وثقى ، بل لقد حدث أن تقلص سلطان مصر عن شمال الوادى ، فكان فى جنوبه أعز وأبقى .. أما اليوم يا بنيتاه ...

ــ واخزياه !.. ولا حول ولا قوة الا بالله !

ــ وبكم يا فتاة !.. لو صدقت النية وصح العزم !

ــ ولكن الناس فى زمانكم لم تكن بهم حاجة الى مناورات السياسة ومؤامرات الدس وتبادل المنافع ...

ــ على رسلك ! فان الانسان هو الانسان من أقدم الازمان .. والسياسة هى السياسة ما قامت الدول وثارت المطامع

وسكتت الملكة لحظة ، وسرحت ببصرها على أمواج النيل هنيهة ثم استطردت تقول :

ــ لقد كان فرعون يلبس لبلاد آسيا لبوسا يختلف باختلاف الاحوال : فهو آنا اب بر ، وآنا آخر فى جلد نمر .. فأمراء البلاد المفتوحة يزاولون سلطانهم فيها تحت رقابة الولاة المصريين ..

ــ ولماذا لايمارس الحكام المصريون ادارة تلك البلاد مباشرة، اليس هذا اليق بالسلطان واوكد له ؟.

ــ هذا اول ما يخطر على البال ، وهو أسهل الحلول وارضاها للغرور. والحصيف الحصيف من ينظر بعين الحذر الى مثل هذا الحل السهل وما ينطوى عليه من غواية واغراء ...

ــ تقريع عنيف ، ففيم هو يا مولاتى ؟

ــ ان الامم العريقة فى السياسة ، ومنها دولكم المعاصرة ذات الامبراطوريات ، تميل دائما الى حكم البلاد المغلوبة بقوم من ابناء هذه البلاد، ولاتستبقى الاسلطة الاشراف والتوجيه. وتلك خطة أريبة تنبى عن ذكاء : لانها لا تفوت على الغالبين شيئا من منافعهم فى تجارة او نفوذ ، وتنفعهم فى تحويل الحقد على الاحكام الجائرة الى قوم من أبناء البلاد . وتنفعهم كذلك فى اجتذاب عدد من وجوه تلك البلاد يتزلفون اليهم بغية الظفر بالمنصب يوما ما ، فتدور السياسة فى ذلك البلد المغلوب حول مرضاة المحتلين ، ولا تتآلف جميع القلوب على دفعهم والخلاص منهم حين يحكمون حكما مباشرا ...

ــ هذه والله أحدث الآراء فى الاستعمار ...

ــ وهى كما ترين ليست حديثة ، الا اذا اعتبرت فرعون مصر من الحديثين ، ولكنه غرور ابناء الزمان الاخير يخيل

اليهم انهم بزوا الاولين ، وهم عالة عليهم فى كل أمر .. تلك كانت حال الادارة فى المستعمرات ، تصدر الاوامر العليا من رئيس الوزراء ، ويتلقاها الولاة فيلقنونها الامراء من الاهلين ، وهؤلاء يقدمون لمصر ماطلبت متصدين له كمخلب القط الذى يخرج الكستناء لصاحبه من النار ...

جنوب الوادى

ـ تلك يا مولاتى مستعمرات مصر فى آسيا ، فكيف كان حكم مصر لشطر الوادى الجنوبى على عهد فرعون ؟..

ـ حكم أخ كريم لأخ كريم ، على اعزاز منه وتعظيم ... « فعنيبة » حاضرة المركز المعروف باسمها الآن ، كانت عاصمة المملكة المصرية الجنوبية ، التى تمتد حتى «نباتا» عند الشلال الرابع ...

ـ ما أبعد هذا البلد من طيبة عاصمة فرعون !

ـ انها الف ونصف الف من الكيلومترات ـ مقياسكم الحديث ـ فكان « نائب الملك » يحكم ذلك الشطر الجنوبى من الوادى فى عاصمته عنيبة ، باسم فرعون ... ولا غرابة ! فان وحدة الشطرين أمر معروف من حيث الجنس والحضارة فى فجر التاريخ، قبل أن تقوم الدولة قيامها على يد «مينا». ثم فرق الدهر بين الشطرين دهرا ، خطى فيه الشمال نحو الحضارة قدما ، وحالت حوائل دون ذلك التقدم فى الجنوب، الى أن عادت مصر تبحث عن « نصفها الغائب » ، حتى قيض الله لهما الوحدة على يد تحتمس الاول . فانشأ وظيفة « حاكم الجنوب » ولقبه بأمير كوش ، ومتعه باستقلال مذكور فى التدبير والادارة ...

ـ وكيف كان يعين ذلك الحاكم العظيم ؟

ـ من أهل الجنوب .. يختاره فرعون ، ويكرمه بألوان من التقريب والمجاملة لا يظفر بها اى حاكم من حكام فرعون ،

اظهارا لمكانة الجنوب الممتازة . فيحتفل بتنصيبه فى اكرم ساحة ، هى ساحة آمون كبير الارباب . فهناك يمثل فرعون بجلال قدره ، ويقدم لنائبه فى الجنوب « خاتم السلطان » ، تشبها بخاتم فرعون نفسه ، ولا عجب ! فسلطانه يمتد من شمال أسوان الى الشلال الرابع

ــ والى اى حد كان يمتد سلطانه فى مرافق الدولة ؟

ــ الى كل شيء يخطر بالبال .. فهو قائد الجيش هناك يدفع البدو عن حدوده ، ويمد فرعون بفرق الجنوب فى جيش منف . واليه يوكل اختيار المواقع للحصون ، واقامة القلاع ، وتشييد المعابد ، والقيام على الرى والصرف ، وفى يده ميزان العدل والقضاء ، وسلطة الضبط والربط ، وجباية الخراج واستغلال المناجم والمحاجر والغابات .. واليه تدبير التجارة العظيمة على وجه النيل هابطة الى شمال الوادى

ــ تلك والله سلطات واسعة .. ولكن اخشى ان تكون جل اهدافها خدمة الشمال لا رفاهة الجنوب

ــ لا وابيك !.. فقد كان قومنا أعقل من التورط فى مثل ذلك الخطأ الفادح ، فأول واجبات الحاكم العمل على ازدهار الزراعة والصناعة . فكان فى قصره نفر من أمهر الصناع المصريين يقومون على تدريب اهل الجنوب أصول الصناعة والفن ، فما من شك أن مستوى الحياة قد ارتفع كثيرا على يد المصريين فى الجنوب ، وانه قد خطا بفضل معونة الشمال والاتحاد معه خطوات جبارة فى ركب الحضارة الذى سبقت اليه مصر الوفا من السنين قبل ذلك ... وقد عرف الثقاة ان أمور الرى على الخصوص كانت موضع عناية فائقة فى السودان أيام ذلك العهد الذهبى . وخير برهان على رفاهة السودان ورضاه عن ذلك الاتحاد مع مصر ، انه اصطبغ بصبغة مصرية خالصة فى سرعة عجيبة ، فعبد آلهة المصريين ، وتمصرت اقاليمه كل التمصير ... ولا يكون ذلك لو أن مصر

حكمت السودان حكم غلبة واستغلال ، لا حكم أخوة ووحدة لا فرق فيها بين جنوب وشمال . . .

الفطرة والتكلف

ـ أجل يا بنية . . ان وحدة الشمال والجنوب فطرة الله، لا اصطناع بنى الانسان ، وما جمعه الله لايفرقه الانسان . . .

ـ ولكن ها هم يفرقونه فى هذا الزمان !

ـ لا تصدقى ! فهم يخدعون أنفسهم حين يتوهمون أنهم يستطيعون لما فطر الله خلافا. فلا تحزنوا ، اذ لابد من التئام الجرح وتمام الوحدة عن قريب . . لانها فطرة طبيعية ببرهان عملى من امبراطورية ابى فرعون . .

ـ وما ذلك البرهان يا مولاتى ؟

ـ ان مصر فتحت الجنوب ، وفتحت كذلك ملكا شاسعا فى أقاليم آسيا ، من فلسطين وفينيقيا الى وادى الفراتين فى اقصى الشمال . . فاصطبغ الجنوب بصبغة مصرية خالصة، ولم يصطبغ ملكها فى الشرق بتلك الصبغة . . لماذا ؟ جواب واحد يصح فى الاذهان ، هو أن الجنوب من طينة الشمال ، اما ذلك الشرق فليس من طينة مصر ، فكان ملكها فيه الى زوال . . . وظلت دائما قلقة بسبب هذه الاقاليم الاسيوية التى تنكأ جروحها فى الحين بعد الحين بثورة دامية تريد بها التخلص من حكم مصر . . .

ـ ان هذا لمزعج !

ـ أجل ! . . ومن أجل ذلك اكتفى فرعون ابى من امراء تلك البلاد بالطاعة والجزية والاعتراف بتاج فرعون ، وتسهيل مهمة جيوشه اذا عبرت بلادهم للقاء عدو أو دفع غارة . . . ولكن . . .

وسكتت نفرتيتى عند « لكن » هذه . . . فنظرت اليها مستفسرة ، فقالت فى أسف :

ــ ولكن هذا الشرق كان فى زماننا صورة مما هو عليــه فى هذا الزمان الاخير .. تيارات من النفــوذ والدسائس الخفية والتنابذ ، تفرق بين اماراته أمم الحيثيين والميتانى التى تتاخمها ، حتى كان بأسهم بينهم شديدا ...

ــ انها سياسة « فرق تسد » التى تعيش عليها بعض الدول الكبيرة فى هذا العصر الحاضر ... فلماذا لم ينتهجها فرعون ..؟

ــ ماذا تقولين؟.. وهل يليق بالاسود فعل الثعالب وبنات آوى ؟! صه ! لا تبرر الغاية الوسيلة الاعند الاوشاب ونفايات الخلق ! وفرعون عزيز مصر .. وهو لا يريد لدول الشرق الا العزة بالاجتماع والتضافر ، فكيف ينشد العزة من هذا الباب الذليل .. باب الوقيعة والتفريق ؟..

صغار الاحلاف

ــ وماذا كان مستطيعا أن يصنع اذن ؟

ــ لقد استطاع وصنع فعلا .. استطاع أن يجمع هؤلاء الامراء المتنابذين فى حلف مع مصر ، ليكونوا أقدر على دفع العدوان ، وبحيث يخف فرعون الى خدمتهم متى أغار عليهم عدو شديد البأس ...

ــ ولكن ...

وسكت أنا فى هذه المرة بعد « لكن » لا افصح عما بعدها ، فقالت نفرتيتى :

ــ ولكن ماذا ؟

ــ ولكن عهدنا بهذه الدول ، لا تحفظ عهدا ولا تقيم على ولاء ، ولا تسكت عن الدس والمناورة ، ولو فى غير مصلحتها المشتركة ...

ــ هذا صحيح !.. وكذلك كانوا ...

ـ فكيف اذن ، وقد عف فرعون الاسد عن سياسة فرق تسد ، تسنى له ان يحفظ ذلك الحلف من الانهيار ؟..

ـ بفعل الاسود وسطوتهم.. فقد كان يرقب أولئك الامراء مراقبة حذرة ، حتى اذا جاءه عنهم ما يريب فى ولائهم ، احضرهم جميعا الى قصره فى طيبة ، وتولى محاكمتهم بنفسه ، فاذا ثبتت براءتهم كان خيرا ، واذا اخفقوا عاقبهم وذويهم بالبقاء فى مصر لا يعودون الى بلادهم ابدا ... وربما وصل العقاب الى حد القتل على الخيانة الثابتة ! فهولين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف ، وابوة للشعوب والدول لا للامراء المهدرين مصالح أممهم ...

فقلت معجبة :

ـ نعمت السياسة يامولاتى .. وانها وايم الحق لسياسة أسد عرين لا يخاتل ولا يستكين ، ولكنه لا يذل الكرامة ولا يستهين بشعور المغلوبين ..

ـ ذلك صحيح.. ولكن اياك أن تظنى بفرعون مصر الاقفار من السياسة ذات الحدين ، التى تنطوى على البر ودفع الضرر والحذر فى آن واحد ..

ـ وما ذاك ؟..

ـ ذلك انه كان يدعو ابناء اولئك الامراء الذين يعرف أن ولاءهم مشوب بالزغل ، لكى يتربوا فى بلاطه مع خاصة أبناء فرعون ، فيكونوا ضباطا فى حرسه ، و « ياورانا » فى تشريفاته ... وينشأوا على الثقافة المصرية ، فيشربوا الميل الى مصر ، ليكونوا عند تولى الامارة فى بلادهم معها لا عليها بقلوبهم وسرائرهم ... وهم فى الوقت نفسه « رهائن » ، اذا لم يبق آباؤهم على العهد ، كانوا ضحية الخيانة والغدر ...

ـ انهااصابة عصفورين بحجر واحد .. وهى بعينها سياسة روما بعد ذلك مع امراء ذلك الشرق ، وهى أيضا سياسة هذه الدول المستعمرة فى الزمن الحديث ، حين تحاول نشر ثقافتها فى البلاد المغلوبة ، وتشجع بعوث أبناء الخاصة الى جامعات بلادها ، وان كان زمان الرهائن قد مضى وانقضى ...

ـ ارايت ؟ كل أولئك « أطفال » فى السياسة بالقياس الى مصر الفراعنة يا بنية ...

فأجبتها :

ـ آمنت بالله يامولاتى ، انكم اساتذة السياسة الاولون ..

فقالت :

ـ وغاب عنك شىء .. غاب عنك أننا شرعنا سياسة « المؤلفة قلوبهم » كما شرعنا سياسة الرهائن ... فكان الامراء الفقراء يتلقون الاعانات من فرعون مصر ، سيد العالم، لكى يستعينوا بها على حفظ مظهر الامارة ، فيكون ذلك ثمنا لضمان ولائهم ، وعدم ميلهم مع عدو فرعون وقت يجد الجد، وأولاء تربطهم بمصر بطونهم ، اذا لم تربطهم بها قلوبهم وعقولهم . وكثيرا ما تكون بطن ابن آدم ـ بينى وبينك ـ هى الطريق السلطانى الى قلبه !.. وقد قيل فى الامثال « اطعم الفم تستح العين » وكان ينبغى أن يقال كذلك : « اطعم البطن ينقد لك القلب »

ـ مولاتى ! ما أشبه الليلة بالبارحة ...

آية الله

أول الغيث

قالت الملكة الحسناء بعد اطراقة تفكير ، هزت بعدها رأسها الجميل الذى يعلوه تاجها الفريد :

ـ انى لأعجب من عجيب صنع الله ! كل يوم هو فى شأن !

ـ سبحان الله وتعالى !.. وماذا عجبت من صنعه ، وكل صنعه عجيب !..

ـ ذلك الملك الشاسع الذى امتد من طيبة شمالا ألفا وثمانمائة من الكيلو مترات ، وجنوبا الى نباتا ألفا ونصف ألف من الكيلومترات ... وتلك الكنوز وذلك الجاه ، والسيادة سيادة لا يكاد يشركه فيها أحد على أرض الله...

ـ ما خطبها ؟..

ـ ماذا أخرجها من طوايا الغيب ، وجعلها ـ بعد ان لم تكن ـ ملء السمع والبصر ؟

ـ هو الله ..

ـ أجل ، ولكنه يجعل لكل شىء سببا ، أليس كذلك ؟

ـ بلى ! ولكن ليس فى هذا للعجب موضع فى كثير أو قليل ، فأى عجب فى ان تكون للنتائج مقدماتها وللأحداث أسبابها ؟

ـ ليس لهذا عجبت من الامر ، فالسببية لا تثير عجب السواد ، وان عجبت لها عقول كبار فى تاريخ هؤلاء الناس . وانما يعجب الناس من سبب لا يرونه من معدن نتيجته . فاذا خرج الشبل من ظهر الأسد لم يعجب لذلك أحد ، أما

اذا خرج الشبل من ظهر الحصان أو الجمل، فذلك هو العجب العجاب فى باب النتائج والاسباب ..

ـ صدقت مولاتى ! ولكن أين الحصان وأين الشبل ، فى هذا الملك الذى لم يظفر به أحد من قبل ؟

ـ ان هذا الملك ، أو تلك الامبراطورية الفرعونية لم تقم عن رغبة فى الفتح بسبب ضيق وادى النيـــل وعجزه عن كفاية أهله حاجات المعـاش الرغيد . كلا ! بل غزيت مصر قبـل ذاك .. غزاها قوم من الرعاة ، عرفوا بالهكسوس ، فاستقروا فى دلتا ذلك النيل ، وكادوا يبقون فيها الى الابد، لولا أن صح عزم الكرام من أمراء طيبة فى صعيد مصر الحر على طردهم، فتلقفوا الراية كابرا مقداما من بعد كابر مقدام ، حتى طردوا من مصر أولئك الرعاة الغزاة .. فكانت آية الله !

وسكتت الملكة حينا ، كأنها تفكر وتستعيد ، فاحترمت صمتها الى أن خرجت منه وعلى فمها ابتسـامة الراضى بما استعاد من الذكرى

الآية الأولى

فقلت للملكة أستحثها على الكلام :

ـ أضحك الله سنك يا مولاتى !..

ـ انها حقا آية الله التى انطوت فى ذلك الغزو الهكسوسى الذى ثقل على مصرحينا ، حتى نفضته عنها كما ينفض الجواد التراب عن معرفته ...

ـ تشبيه جميل .. فالجواد حيوان رشيق الحركة نبيل، حتى وهو ينفض التراب ...

ـ يا بنية ! لم أستعمل الجواد فى ذلك التشبيه عبثا ، فقد كان أهم عنصر استخدمه الله لاتمام آيته فى تلك الغزوة، وفى حرب الاستقلال ، ثم فى فتح الشرق الى وادى النهرين الأعلى من بعد ذلك ...

ـ وكيف كان ذلك ؟٠٠

ـ لم تكن مصر تعرف قبل غزوة الهكسوس ذلك الحيوان المعروف باسم الحصان ، ولا عجلة الحرب التي يجرها ذلك الحيوان ، الى أن غلب بهما الرعاة مصر على أمرها فملكوا وجهها البحرى حينا من الدهر ٠٠ ولكن ذلك الغزو كان تافه الأهمية وان بدا هائلا مروعا ، بالقياس الى شيء لم تظهر له أول الأمر أى أهمية اطلاقا ، ألا وهو دخول الجواد أرض مصر ، وسرعة تأقلمه فيها ، وكثرة نسله وانتشاره في ربوعها شمالا وجنوبا ، حتى بات الحيوان الأساسى فى وادى النيل ، بعد أن كان الحمار هو ذلك الحيوان ٠٠ وتعلم المصريون صناعة العربات أيضا

ـ ما أفطنهم أن يتعلموا سر عدوهم ويحذقوه ، فانه لا يفل الحديد الا الحديد !٠٠

ـ لا تحسبيهم تعلموا صناعة العربات قصدا ، بل بتلك الفطرة التي ركبها الله فى الفلاح المصرى أن « يلتقط » كل صنعة بسرعة هائلة ٠٠٠

ـ صدقت مولاتي ! فهؤلاء فلاحونا الأميون يتعلمون بمجرد المشاهدة ادارة آلات الرى البخارية ، وطرق اصلاحها ، بلا تعليم منظم خاص ... واما سرعة اتقان جنودنا الاميين لدقائق الآلات الهندسية مثل الرادار ، فحديث سار كل مسار ، وعجب منه كل انسان ٠٠٠

ـ لقد شاء الله اذن أن يكون الضرر الاكبر ، وهو غزو البلاد على يد الرعاة ، سببا فى دخول الجواد أرض مصر الى الأبد وفى تعلم المصريين صنع عجلة الحرب ٠٠ حتى اذا قامت قومتهم للاستقلال ، فل الحديد الحديد ، وطرد الهكسوس على يد أمراء الصعيد ، فكانت هى النافعة الأولى من تلك الضارة الكبرى ٠٠٠

ـ صدقت مولاتى ! ما أعجب صنع الله ٠٠٠ ولو اطلعتم

على الغيب لآثرتم الواقع ! ولكن أين هذا مولاتي من حديث الامبراطورية ؟ . .

ـ انه قريب من قريب .. فبعد أن تم طرد الهكسوس ، تعقبهم ملوك مصر الجدد حتى يبعدوهم عن تخوم مصر ... فوجدوا فلسطين أرضا مفتوحة لا خيل فيها ولا رجل على وجه التقريب ، فتوغل جيش مصر على ساحل فينيقيا « لبنان » متعقبين عدوهم العتيد ، حتى تم لهم طردهم بعيدا وراء تلك الربوع... وبذلك نبتت عند فرعون فكرة «تأمين حدود مصر » ، لأن سيناء وفلسطين ليستا حدودا حصينة بطبيعتها ، فوجب الاستيلاء عليها حتى تؤمن حدود مصر نفسها . فأول فتح في الشرق كان لغرض دفاعي بعد تلك الغزوة .. ولكنه لم يقف عند هذا ! فقد لمس فرعون تفكك امارات ذلك الشرق وتنابذها وسهولة وقوعها فريسة لغاز آخر يخلف الهكسوس في الاطماع والباس ، فقرر فرعون أن يبسط ظله على تلك الامارات ، ويتوسع في ذلك حتى يكون له ملك عسكرى واسع يحمى ظهر مصر ، ويفتح عليها ينابيع الرزق ... فتعاقبت أجيال من فراعنة غزاة ،أقاموا تلك الامبراطورية العظيمة التي بدأت مطاردة للعدو ، ثم تطورت الى تأمين من الغزو ... ثم استمرأ الفراعنة الفتح وطعمه الحلو ، وما فى الملك العريض من أبهة وزهو ...

صفحة بيضاء

فقلت مستدركة ، أو معقبة :

ـ ولكن السيف كما يقولون يا مولاتى ذو حدين ، فهو اذ ينزف دم العدو وينبت أكاليل الغار فيعقدها على رأس المنتصر ، يستنزف أيضا دم الأمة وأرزاقها ...

فأجابت الملكة وهى تبتسم ابتسامة الكبار حين يردون على ذلاقة صغارهم :

ـ ذلك صحيح ، وهو ككل صحيح يتفاوت فى صوابه ، فليس كل حكم صحيحا « مائة فى المائة » . وهـذا الرأى الذى ذكرته نفسه ليست صحته تامة كاملة

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ ان فتح تلك البلاد لم يستنزف من دم مصر شيئا كثيرا كما تتوهمين ، لان القوى لم تكن متكافئة ، ولان عبقرية تحتمس الثالث على الخصوص حقنت الدماء وأدنت ثمار النصر بغير ثمن فادح

ـ والمال مولاتى ؟ المال عصب الحياة ؟.. هل تتكلف الحملات الحربية الشيء القليل فى نفقات التسليح ، والتحصين ، والنقل ، والمؤن ، والامداد ؟

ـ بل تتكلف كثيرا ... ولكن هذا عاد بالخير على ذلك البلد الأمين

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ ان انشاء جيش كبير دائم ، للفتح وتامين ثغور الامبراطورية المترامية كان سببا فى قيام نهضة صناعية كبرى ، لصنع آلات الحرب والحصار والنقل ، وللتموين والعمارة اللازمة لاقامة الحصون . فازدهرت صناعة التعدين واستغلال المناجم والمحاجر ، وقامت المصانع فى بقاع من الوادى مختلفة ، تصب منتجاتها فى « منف » عاصمة الجيش المصرى .. واستتبع ذلك النشاط الصناعى انتعاشا فى الحياة الاقتصادية وارتفاعا فى مستوى الحياة ، زاد بعد الفتح بما تدفق على مصر من موارد البلاد المفتوحة واتاواتها ...

ـ انها لعمرى صفحة بيضاء ...

ـ ولكنها ليست وحدها فى ذلك البياض .. فهناك ما هو مثل ذلك أهمية وفضلا على الحياة المصرية والحضارة المصرية .. هناك صفحة جديدة حقا فى تاريخها

ـ وما ذاك ؟ يرحم الله مولاتى !

ـ هذه البلاد التى فتحها فرعون ، من غزة الى أقصى جبل الكرمل من لبنان ، كان سبيل الوصول اليها والعودة منها هو السفن على متن البحر • وبذلك صار لمصر أسطول ، وصارت مصر سيدة البحار فى ذلك الزمان ••

ـ الله أكبر !

ـ وصارت الفلك تنقل الجنود والعتاد ، وتعود بالخيرات من آفاق تلك البلاد ، يعمل عليها تجار من الفينيقيين بشعرهم الطويل المرسل وزيهم الملون الغريب•• أما البحارة فمن أهل فينيقيا أيضا ، ولكنهم ليسوا كخاصة القوم ، بل ان شعورهم وثيابهم قصيرة ، لانه لا فراغ لديهم للاناقة والتجمل •••

وما ذاق المصريون لذة الفتح حتى أوغلوا فى الارض ، وما ذاقوا لذة التجارة على متن البحر حتى أوغلوا بالاسطول متاجرين فى غير سواحل الامبراطورية ، فهذه « قبرص » تتصل الاسباب بينها وبين مصر ، فيحمل الاسطول المصرى الى وادى النيل زيتها وفضتها ونحاسها • وهذه اقريطش « كريت » يحمل منها الاسطول المصرى أيضا صناعاتها وخيراتها ، ويحمل اليها خيرات مصر •• واذ نشطت تجارة البحر ، نشطت موانى التجارة ومراسى السفن ، وسادت البلاد موجات من الرخاء ، وعرفت ألوانا من الاستهلاك لم تكن تعرفها من قبل •• استهلاكا غذائيا وصناعيا ••• وثقافيا أيضا ، فقد اتصلت التجارة بين مصر واليونان ••

فى أعقاب السيف

فقلت مؤمنة :

ـ أجل مولاتى ! لقد عودنا التاريخ أن تسير فى أعقاب الجيش الفاتح موجات مختلفة ، بعضها من الاوبئة والطواعين

ـ والعياذ بالله ـ وبعضها من الحضارة التى تتبادلها الأمم غالبة ومغلوبة ، وبعضها من الثقافة والتزاوج ، فيكون من ذلك كله خير عميم ، لمستوى النسل ، وتقدم الحضارات ، وانتشار الثقافات والآداب . . . كذلك كان من فتوح « ذى القرنين » فى الشرق كله . . .

فقاطعتنى الملكة فى شىء من الحدة :

ـ ومن ذو القرنين؟ قبله وقبل قرنيه بقرون ، كان آبائى الميامين ! لقد صنع فتحهم للشرق الأعاجيب ، فانتشرت الثقافة المصرية ، والحضارة المصرية فى كل مكان ، وصارت مصر بعاصمة ملكها طيبة ، وعاصمة جيشها منف ، جامعة يتلقن فيها أبناء العليـــة من تلك الأمم أعظم ثقافة وأعرق حضارة فى العالم ... فخطت تلك البلاد خطوات جبارة فى ركب التمدن والحضارة بفضل الفتح المصرى . فلم تكن مصر وحــدها هى المنتفعة من هذا الفتح المبين ، بل لعل انتفاع الامم المفتوحة كان لا يقل عن انتفاع مصر بحال من الاحوال .. لانها تاجرت مع مصر كما تاجرت مصر معها ، ولم يكن حال مصر كحال الامم المستعمرة فى الوقت الحاضر

وسكتت الملكة ، كأنها اعتقدت انى فهمت ما ترمى اليه بذلك التلميح ، فلا حاجة الى بيان صريح .. فاستزدتها ، فقالت :

ـ ان الدول المستعمرة فى العصر الاخير تحــاول اغراق البلاد المفتوحة بصناعاتها ومتاجرها ، ولا تأخذ منها مثــل ما تعطيها من المنفعة .. فثمت حواجز جمركية ، وقيــود العملة ، وما الى ذلك مما يعين على الاستغلال ، ويوقف تقدم البلاد المحتلة . أما مصرنا يا بنية فلم تعرف الا حرية التجارة ، فأفادت كما استفادت ، وحمدت الشعوب المفتوحة لمصر هذا البر وذلك الرخاء الذى أفاءته عليها ..

ـ ولكن أمراء تلك البلاد حريون أن يحنقوا ...

ـ ومن أمراء تلك البلاد ؟ لقد كانوا شيوخ قبيل متنابذ تفرقه الاطماع ودسائس الأمم الكبيرة المجاورة كأمة الحيثيين والميتانى • فوحد فرعون بينهم ، وعلمهم الحرب الحديثة ، وجعلهم جبهة واحدة ، لا يسهل ازدرادها على العدو المتربص •• وقد كتب أولئك الأمراء بعد موت تحتمس الثالث فى أكثر من مناسبة ، مشيدين بفضله عليهم من هذه الجبهة • فمصر القديمة هى أول من أقام حلف الشرق الأوسط ، أو جامعة الامم العربية بمعنى أصح •••

فقلت :

ـ ما أسعد فرعون أبيك بهذا الملك وهذا الفضل الموروث

ـ أجل يا بنية !••لقد ورث امبراطورية مستقرة مشيدة الاركان عالية الصرح • فقدر ان السلام والأمن هما أعظم النعم الانسانية ، فبدا يستمتع بما يفىء عليه وعلى مصر ذلك الملك العريض المستقر ، فكان هذا الترف الذى لم يشهد العالم القديم له نظيرا ، والذى يشبه بذخ لويس الرابع عشر فى زمانكم الحديث فى دولة الفرنجة •• فن وترف ونعيم مقيم • ولكن الترف كالدسم الكثير ، له مضاعفات تتعب المعدة والكبد والامعاء . فسم الدسم من معدن الدسم وليس دخيلا عليه•••واذا أصبح المرء أسيرا لترف لا يتحرر منه بل يستمرئه ، تهاوى الى الانحلال ، اذا لم يكن فى الحال، فبعد حين .. سنة الله فى خلقه •••

ـ ولن تجد لسنة الله تبديلا •••

على مائدة الأجداد

حقوق البطون

ومالت الشمس الى الغروب ونحن نتجاذب ذلك الحديث عن ملك مصر الغابر ، وما كان لها من مكانة لم ينلها الاوائل والاواخر ، وقد سحرنا ذلك الحديث الساحر وأنسانا مرور الوقت ، فقالت الملكة لى وهى تبتسم :

ـ أما لك بطن يا بنية ؟ هذه ساعة ينبغى أن نرتب لأنفسنا فيها شيئا نأكله ‥ فما رأيك فى هذا ؟‥

ـ الرأى رأيك يا مولاتى ‥ ولكن أين نأكل ؟ أثمت مطاعم عامة ؟

ـ فى طيبة ولا مراء مطاعم عامة ، لانها حاضرة الدنيا ، لا ينقطع عنها وفود الغرباء من ذوى الحاجات أو ذوى المطامع

ـ اذن نميل الى أحدها ...

ـ كلا ‥ بل نميل الى مائدة جدى لأمى ، تويا ، والد الملكة تى ، فانه قد أولم الليلة لمناسبة حفلة الانعام على المخلصين من القواد العظام ‥ فهيا بنا الى قصره ، فهو قريب من قصر فرعون هذا ...

ودخلنا فاذا سور عال ، وباب له عمد كأبواب الهياكل ، وساحة تدخل اليها المركبات يجرها جواد واحد، والسياس يأخذون بأعنة الخيل ، فيرقى المدعوون الدرج القليل الارتفاع الى شرفة يدخلون منها الى قاعة الاستقبال ، يحف بهم منذ أول الدرج عبيد رب الدار وأبناؤه، وقد يخرج هو لاستقبال الاثيرين ‥

ولكن الملكة لم تدخل مع الداخلين ، بل قالت لى :

ـ ان الاستقبال لم يبدأ بعد ، وليس هؤلاء الوافدون هم أكبر المدعوين مقاما ٠٠ فتعالى أولا أدخل بك المطابخ ، لترى بعيني رأسك اعداد ذلك الطعام الذى ستتناولينه

خلف القصر ٠٠

فدرنا حول القصر الى بنائه الخلفى ، حيث المطابخ والمخبز ومخزن المؤن وما اليهـا ٠٠ فاذا ثور افريقى مسمن حتى أنه لا يحرك قوائمه الا بصعوبة ، يقوده الرعاة فيسلمونه الى القصابين فى رحبة صغيرة أمام المطبخ ٠٠

فاقبل القصابون الاربعة على فريستهم الكبيرة ، فعقدوا حبلا حول قدمه اليسرى الأمامية ، وقذفوا طرف الحبل من فوق ظهر الثور فتلقفه زميل للقصاب الأول فجذبه حتى أكره الثور على رفع رجله المربوطة عن الارض ٠ وفى هذه اللحظة انقض الاثنان الآخران على الثـور ، فشد أحدهما قرنيه الى الخلف ، وقبض الآخر على ذيله ٠ واجتهد القصاب الاول ـ الذى ربط رجله اليسرى ـ فى رفع رجـل أخرى من قوائمه الخلفية عن الارض ٠ فوقع الثور عـلى الارض ، فاجتمع القصابون على ربط قائمتيه الخلفيتين بالحبـل الى قائمته الاولى التى بدأوا بها ٠٠ وكذلك أضحى الثور عاجزا عن انقاذ رقبته ، التى أنحى عليها أشد الفتيان بأسا ، وكان قد شحذ سكينه التى لا تكبر طول الكف كثيرا فوق حجر صغير معلق فى ثوبه القصير ، فأغمدها فى رقبـة الثور ، ثم تلقى الدم فى وعاء خاص ، فقـدمه الى موظف معين من رجال الدين ، من اختصاصه تشمم الدم لفحصه والتثبت من خلوه من الآفات ٠٠٠

ثم بدأت بسرعة البرق ، عملية تقطيع أوصـال الذبيح على نسق خاص ٠ فلما فرغنا من ذلك المشهد المثير ، قالت لى الملكة :

ـ هذا هو اللحم المسمن الذى سيطعمه الناس ·· فتعالى الآن الى جانب آخر من المطابخ

ومضيت معها ·· فاذا طهاة يذبحون من الطير عددا لا حصر له ، بين بط وأوز وحمام وأرانب ··· فقلت وأنا أقلب نظرى فى هذه المجزرة التى تعالت منها الاصوات المتباينة :

ـ هذا بديع ·· ولكن أما من دجاج ؟

ـ ولماذا لا تسألين أيضا عن الديكة الرومية ؟

ـ وهل تحسبيننى يا مولاتى أجهل أن الديكة الرومية لم تعرف الا بعد كشف أمريكا ؟

ـ فاعلمى اذن أن الدجاج والديكة لم تكن قد عرفت بعد فى عهدنا هذا ، فى الأسرة الثامنة عشرة ···

ـ واأسفاه ·· ولكن أظن ماء النيل فى عهدكم كان كعهده الآن ؟

ـ ماذا تعنين بهذا الكلام ؟

ـ أعنى أننى أحب السمك كثيرا ، المقلى منه والمشوى والمطبوخ فى أوانى الفخار بفريك القمح ···

ـ ما شاء الله ! فاعلمى اذن أن جدى لأمى كاهن من المدققين ·· والمدققون من الناس فى زماننا لا يأكلون السمك وان كان سائر الناس يأكلون بعض أنواع السمك دون بعضها الآخر ·· فليس كل انسان قادرا على أكل اللحم · فمن ذا من العامة والفقراء يستطيع أن يذبح لطعام أهله ثورا ؟ وبهذه المناسبة : «من أى البلاد أنت فى مصر؟»

ـ من الفيوم يا مولاتى !

ـ اذا عرف السبب بطل العجب ! ان أهل الفيوم على عهدنا كانوا صيادى سمك محترفين ·· والعرق دساس كما ترين ، فها أنت تتشهين السمك !

ـ والخضر يا مولاتى ؟ أى أنواعها سنأكل ؟
ـ انظرى : هذه أكداس من البصل ، والكراث، والفجل، والثوم ، والقثاء ، والفول والبطيخ والشمام والخيار ...
ـ أما من خضر مطهو اذن ؟
ـ كلا ! فنحن لم نعرف هذا اللون من الطعام .. ولكنا نعرف اللبن والجبن والزبد ، ونعـــرف من الفاكهة العنب والتين والبلح والجميز والدوم ... ودخـــل مع الهكسوس وجيادهم ومركباتهم شجر الرمان والزيتون والتفاح .واذا لم يكفك هذا ، فاعلمى أن ختام المائدة هو شـــهد النحل البرى والخرنوب
ـ نعمة جزيلة ، نسأل الله دوامهـــا ... ولكن كيف سيطهى اللحم والطير ؟
ـ انه السلق على نار فحم نباتى يأتينا من بلاد النوبة ، ثم التحمير بالسمن ودهن الماشية .. كذلك يطهى معظم لحم الثور ، أما المواضع الممتازة فتشوى على أعواد من حديد ، فيكون منها ذلك « الكباب » الذى لازلتم مولعين به أبنـــاء النيل ... كما تشوى الطيور على هذه الطريقة ...
ـ الحمد لله ! هذه أصناف لا أستغربها ...
ـ وصنف آخر لا تستغربينه ان شاء الله .. وهو نوع من اللحم المقدد المملح ، الذى تسمونه البسطرمة ..
ـ أحقا ؟
ـ على وجه التقريب ! فنحن نقدد طيور الماء ونملحها ، ونقدمها على المائدة لونا من المشهيات ...
ـ على بركة الله ! فهذا والله عشاء حافل ...

فى قاعة الاستقبال

وابتسمت الملكة وقالت لى :
ـ أرى قلبك قد اطمأن .. فتعالى اذن ندخل مع المدعوين

الى قاعة الاستقبال لكى ندخل معهم بعد ذلك الى قاعة الوليمة ...

واستدرنا الى الباب الأمامى ، فاذا الوجوه من المدعوين قد حضروا ، كل معه زوجه فى أبهى زينة وأغلى ثياب وأبهر حلية ، فى عيونهن الكحل الفاتن ، وعلى وجوههن المساحيق العطرة الفياحة .. واذا مصر هى مصر ، بلد التحيات والمجاملات منذ الأزل . فما أكثر عبارات التحية والتبريك

ـ مرحبا ، مرحبا !.. بارك آمون فيك . وشرح صدرك بنوره ، وأطال عمرك . وأسعد مشيبك . وأعطاك الغنى والعافية . وبارك لك فى ولدك ومالك ...

وما الى ذلك من الدعوات الكثيرات المكررة ، تتطاير هنا وهناك ، حتى يلج الضيف قاعة الاستقبال .. فاذا مقاعد من الآبنوس الفاخر ، لها ظهور عالية ، وتستقر على أربع قوائم كل منها يمثل أسدا ، هى كلها تحفة فى الحفر وفن النجارة وفخامة المواد الاولية . وتحلى الظهر والذراعين نقوش بديعة للآلهة ، ومناظر الحرب وأمجاد فرعون ...

وهذه مقاعد العلية من المدعوين.أما من يليهم فيجلسون على مقاعد بغير أذرع ، فى شكل علامة × ، تطوى وتفتح ككراسى الشاطىء عندنا ، ولكن أخشابها ونقوشها من أجمل وأبدع ما يكون ، وتنتهى قوائمها فى الغالب برؤوس البط ومناقيرها

وعلى الارض حشايا من الدمقس والكتان ، يجلس فوقها الشبان الذين لم يتسع لهم مكان للجلوس على الكراسى والمقاعد

وكان رب البيت فى الصدر ، والى جانبه زوجه ، وتحت قدميه كلبه مستكينا ، وقد أغمض عينا وفتح الاخرى على مألوف الكلاب حين تغفو

وما استقر المجلس بالجمع ، وفرغ معين التحايا ، حتى

أقبل الخدم والعبيد ، أخلاطا من أمم الارض ، لانهم من أسرى الحرب فى المشرق والجنوب ، يحمل كل منهم طستا وأبريقا به ماء ، لكى يغسل الضيوف أيديهم •• فان غسل الأيدى قبل الطعام وبعده تقليد مقدس عند المصريين القدماء

فلما انتهى هــذا الواجب ، خف القوم الى قاعة المائدة ، حيث أعدت الوليمة الكبرى •••

هنيئا مريئا ••

وقاعة المائدة فسيحة على جدرانها وعمدها صور زاهية الألوان لمناظر الطبيعة وأنواع الطير والحيوان، أبدع الفنانون رسمها متاعا للعين ونزهة للخاطر ، بعد أن كانت رســوم القدامى مقيدة بطقوس الدين ومناظر الأساطير ••

أما الموائد فصغيرة كثــيرة ، منتشرة فى أرجاء المكان ، وحولها المقــاعد بين ذى الذراعين وغير ذوات أذرع ••• وبالقرب منها رفوف عليها آنية الزهر ، وســلال الفاكهة ، وأطباق اللحم وقدور الشراب ونوافل البقل والخضر •• فلم يعرف القدامى تلك الموائد الكبيرة الحجم، وانما كانت المائدة يجلس اليها اثنان أو ثلاثة من الطاعمين •••

أما الأوانى الصغيرة فمن خزف جميل النقش ، وبعض الصحاف من الفضة المزخرفة • أما القدور فمن فخار أو من حجر منحوت ••• وثمت أيضا أوان منقوشة من المعدن من صنع سوريا واقريطش وجزر الاغريق

وقدور الشراب فيها « مريسة » الشعير أو البلح ، وهى نوع من البوظة مصفى، أو اذا شئت فهى البيرة التى يعرفها أبناء هــذا الجيــل •• وذلك هو الشراب المصرى الصميم القديم • ولكن هناك كذلك بنت الكرم من معتق النبيذ ، هدية أوزيريس الى الناس • ولكن النبيذ الحلو، الذى يشبه

فى حلاوته الرحيق من شهد النحل هو النوع المحبوب لديهم

وجلس الطاعمون حـول الموائد ، والطعام كله أمامهم ، لا يقدم طبقا طبقا كما يفعل أهل الغرب، فكل انسان مفوض أن يأكل ما يشاء كيفما يشاء وحينما يشاء

وتحرك فى حلقى سؤال ، وأنا آخذ من طبق شـيئا من الشواء آكله بأصابعى ، فلا أدوات للمائدة هناك ، متلذذة بهذا الطعـام الذى لايرانى أحد وهو ينساب الى حلقى ، فقلت للملكة :

ـ ان الشواء متقن، ولكن أين التوابل ؟ وان الملح لكثير..

ـ انه عوض عن تلك التوابل والافاويه ... فكلى هنيئا كما يأكلون !

ـ والله انى لأرى الغبطة على وجوه القوم حقا ... أهى المجاملة ؟

ـ كلا ! فالمصرى منذ القدم لا يسعد بشىء كما يسـعد بالاجتماع مع نفر من الاصدقاء حـول مائدة حافلة بما لذ وطاب ...

ـ هذا تقليد جميل احتفظنا به .. ولكن يدهشنى حقا أن أرى اختلاط الجنسين سائدا لديكم الى هذا الحد العجيب

ـ وفيم العجب ؟ لم نكن أمة تعرف الحجاب ، وان كانت ولائم من سبقونا تجعل موائد للرجال وموائد للنساء .ومن آداب الاجتماع ألا يختلس الرجـل النظر الى حيث يجلس النساء فى بيت داعيه .. أما فى زمن أبى ، فها أنت ترين أن ذلك الفاصل قد زال ، فالناس أميل الى التحرر ، ولكن الاختلاط ليس تاما ... فكل رجل صاحب الحق فى الجلوس مع زوجته الى مائدة واحدة ... ولا تجلس زوجته مع قوم آخرين الا باذنه ... ولكن انظرى بربك !

ـ الله أكبر ! ما هذه الفتنة كلها ؟!

فقد رأيت الجواري يدخلن فى ثياب تظهر أكثر مما تخفي، ولا تخفى الا لتثير الفتنة بما تخفي، ينقلن الطعام من الرفوف الى الموائد ، ويبخرن بالعود بين الجالسين ، ويوزعن الزهور والرياحين في ابتسام جميل ، حتى أصبح فى كل يد عود من الريحان أو الزنبق .. وعلى كل رأس اكليل من الزهر ناصع البياض ...

وكان الشراب قد لعب بالرؤوس، فبدأت النكات تتطاير، والضحك يعلو كالرعد القاصف ، والقدود تتمايل ، والخدود مشتعلة بحرارة الشراب والسرور .. فبدأ الجوارى الحسان يعزفن على القيثارة ، وينفخن فى الابواق ، ويرقصن على حدائها العذب ...

ثم ارتفع على الارغول صوت حنون يغنى شيئا هو أقرب الاشياء الى موالنا الحديث :

« لب نداء قلبك ما حييت ..

« وعطر بالطيب رأسك ...

« والبس أفخر الثياب من رفيع الكتان ...

« ولب نداء قلبك ما بقيت على الارض ..

« ولا تحرم نفسك من لذة ...

« فلكل لذة أوان ...

« ولا يرجع ما فات ...

« هيهات هيهات ...

وارتفع من السامعين الثملين اعصار عاصف من «الآهات» المعهودة حتى هذه الايام عند « الانسجام » ، وتحدرت دموع آخرين ، وسكت صوت المغنى ، لكى يفسح المجال لغناء العيون ..

وهل غناء العيون سوى الرقص الموقع على الانغام ؟

ان الراقصات شبه عاريات ، ولكن الرقص لا يشبه رقصنا « البلدى » ، بل هو أشبه بالرقص الهندى : تعبير، وشعر ، ورموز تخاطب الحس والنفس بما لا تنطق به اللغة فليس للذة البهيمية نصيب فى ذلك الاداء الجميل

اما الاجسام .. فلا فضول من لحم وشحم ، وانما هى الرشاقة على آخر طراز ، بغير مشد ، وبغير افتعال ...

واندفع الناس يحيون الراقصات بالشراب ، حتى بدأ بعضهم يفقد وعيه ..

وأخيرا ، بدأ الغثيان والقىء ... فاستولى على الفزع ، فابتسمت الملكة نفرتيتى وقالت لى :

ـ هذه أكبر تحية لصاحب المأدبة ... وأعظم شهادة له بالكرم ووفرة الشراب وجودته ...

ـ رباه ! ان هذه العادة ليس أسوأ منها فى أيامنا الراهنة الا تجشؤ الضيف فى بعض بلاد الريف فى نهاية الطعام ، لكى يعلن لصاحب الدار أنه أكل حتى امتلأ وفاض الاناء بما فيه ..

واقبلت الجوارى الحسان ، والعبيد الوسيمون ، يرفعون آثار ذلك « الشكر » لنعمة رب القصر ، ويمسحون الارض والموائد من تلك الشوائب ... لكى تستمر المأدبة فى صخبها ونشوتها ...

فقلت للملكة :

ـ مولاتى ! هيا بنا..فهذا حسبى من مائدة الاجداد...

المرأة والبيت

بناء •• وبناء ••

وعلى طنف من القصر ، بعيدا عن الصخب والضجيج ، جلسنا نتملى جمال الليل الساكن الذى اشتهرت به سماء مصر الصافية ، البعيدة الغور ، حين ترصعها النجوم وقد غرب القمر عن الانظار •••

وقرع سمعنا من بعيد ، من فلك يجرى فوق النيل السعيد ، صوت ملاح من أبناء الصعيد ، يتغنى بالهوى والجوى والحبيب النازح الذى شط به المزار •••

« شعرها كالليل الحالك ، أو هو أشد منه سواداً ••
« وأشد سوادا من شعرها الفاحم انسان عينها الواسع
« وشفتاها أشد احمرارا من العقيق الاحمر
« ورضابهما أشهى من جنى البلح الرطيب ••
« وثدياها تحفتان أحكم وضعهما فوق صدرها الناعم
« هى منى القلب •• وأنا لبعدها مضنى حزين ••
« كم أتمنى أن ألزم الفراش عليلا
« كيما تزورنى الحبيبة وتضع يدها على جبينى •••
« آه كم أنا عاشق •••
« وآه كم أنا مدنف فى هواها . . . »

وكنت أرهف أذني لهذا الحنين الساذج الذى ينطلق من أعماق الفطرة الريفية المصرية •• فلما سكن الصوت ، وانقطع صداه ، التفت الى الملكة متعجبة وقلت :

ــ كأن الزمان لم يغير فى حياة هذا البلد الأمين منذ

آلاف السنين ، فالآهة الحزينة ، والحنين الى الحبيب، وشكوى الهجر والدلال ، هى هى لا تزال طابع مصر بعد كل هذه الاجيال ...

فهزت الملكة رأسها هزة خفيفة ، وقالت :

ـ هو ما تقولين ، فمصر من قديم بلد الحنين والأنين... وهى أيضا بلد البناء بأكثر من معنى واحد ...

ـ رعى الله مولاتى ! هلا أبانت عما أجملت ؟

ـ انى أعنى المعنى المزدوج للبناء ، فالبناء هو التشييد ورفع العماد بعد ارساء الاوتاد .. والبناء هو الزواج لاقامة الأسرة وانجاب الاولاد . والمصرى مغرم منذ القديم بهذا البناء وذاك البناء على السواء.. فنحن شعب يقدس الأسرة، ويقدس العمارة واقامة بيوت الحياة والموت جميعا ، حتى لقد كان اللفظ الذى يدل فى اللغة المصرية القديمة على اقامة البيت واللفظ الذى يدل على التأهل بزوجة واحدا بلا اختلاف

وحواء ؟

فقلت للملكة عند هذا :

ـ ذلك جميل يا مولاتى . ولكن ما كان دور حواء فى ذلك البناء ؟ وهل هى تشارك فيه بالرغبة الصادقة والارادة المطلقة ، أم هى سلعة السوق وأثاث البيت ، لا رأى لها ولا صوت ؟

ـ بل لها رأى ولها صوت ، وان لم يكن ذلك حالها فى جميع الاحيان ، فما كل فتى من ذوى القلوب ، وما كل فتاة من ذوات الصبوة وأهل الهوى ... فرأى الفتاة فى بعلها رأى مسموع ، وصوتها أيضا ليس أقل دويا واسترعاء للاسماع من صوت آدم فى هذا المضمار ... فتعالى معى

نحث الخطى الى شاطىء النهر المقدس ، حيث يبكر العذارى للسقيا ...

ومضينا « والشمس فى خدر أمها ، والطل لم يجر ذائبه» ، حتى بلغنا حى السوقة ، وتجاوزناه الى أرباض المدينة من أطراف الريف ، فاذا صبايا يحثثن الخطى الى النيل ، وعلى رؤوسهن الجرار ... والمآزر السود ، فهتفت :

– هذه بردة الصعيد ، وتلك جراره لم تتبدل

فقالت الملكة :

– وقلوب أبنائه وبناته أيضا لم تزل على عهدها الأول ..

ثم ارتفع حداء لطيف النغم فى سكون السحر :

« أخى ... قد سبى قلبى صوته العميق ...

« آه ! كم صوته عريض هذا الأخ الوسيم

« الذى تجاور داره دار أمى ..

« ليتنى معه فى داره !..

« ولكن لأتركن لأمى تمهيد هذا الوصال !

« بل يا ويح لى ! انه المسئول ان يطلبنى ...

« وأنا بعد هذا حرية أن أستجيب ..

« فتعال يا أخى الى أمى واطلبنى ...

« كى أكون لك على شريعة الآلهة ..

« واتبعك الى الأبد ...

« آه يا أخى ! يا له من حلم ...

« فهلا اقتربت منى كى أشهد جمالك ..

« ان أبى سيسر بك كثيرا ...

« لأن وسامتك وفراهتك تشرحان جميع الصدور

« والاجماع على اطرائك معقود يا اخى الحبيب .. »

وسكن الصوت ، وغرد فى الأفق البعيد طائر مبكر ، أو لعله الكروان ... سلطان المغردين فى سماء وادى النيل ... فقالت الملكة بعد صمت قليل ، كأنها تستمرىء ذلك الصوت الحنون :

ــ ان الأخ والأخت كنية الحبيب والحبيبة فى مصر القديمة

ولم تكد تتم عبارتها ، حتى انبرى صوت فتاة أخرى من سرب العذارى ، يتغنى فى صوت رخيم بأغنية أخرى من أغنيات الهوى والشباب والأمل الحلو :

« مررت بالدار ، دار هذا الحبيب ..
« فألفيت بابه مفتوحا
« وكان حبيبى واقفا فى الرحبة
« ومن حوله أمه وأبوه وأخوته وشقيقاته
« وحسنه الباهر يأسر كل عابرة سبيل !
« فأدبه واناقته ليس لهما مثيل
« بين أبناء الخاصة من أهل الظرف
« ورشقنى « أخى الحبيب » بنظرة ...
« يا لها من نظرة !
« فاختلج جسمى كله بالفرحة الطاغية
« وتمتعت وحدى بهذه النشوة الحلوة ...
« لأننى كنت وحدى حين عبرت الطريق
« أمام باب الأخ الحبيب ..
« لله كم انتشيت بتلك النظرة !
« فليت أمك يا أخى عرفت مكنون قلبى
« اذن لحثت الخطى الى دار أمى ..

« وطلبت اليها قرب النسب ..
« فأذنى أيتها الالاهة التى ترعى المحبين
« والهمى أمه هذا العمل الصالح
« حتى يتسنى لى عندما أرى أخى الحبيب
« ان أعدو نحوه أتشمم ريحه العطر
« ولا أمر هكذا بعيدا فى فرحة مكتومة
« هى أشبه الاشياء بخلسة المحروم ! »

وتندت عيناى بالدموع لهذا النشيد الساذج الصادق ، فقالت لى الملكة وهى تبتسم :

ـ ان الشباب جميل كالاحلام ...

ـ أجل ، وفارغ سريع الزوال كالاحلام أيضا ، ينخدع بها الحالمون ...

فقطبت الملكة حاجبيها وقالت :

ـ صدقت لو أن الشيخوخة أكثر دواما وثباتا وحقيقة من هذا الشباب الذى تزعمينه فارغا سريع الزوال ! كلا يا بنية ! لا عيب فى الشباب الا أن يطيش عن المعالى ويشغل بغرور القوة الحيوانية فيه واشباع نهمه الى اللذات... أما الشباب فحبذا هو ، وانه لعمرى بمنزلة الربيع من الزمان، لايعدله فى العمر زمان ... وانما ينعى الشيوخ على الشباب الجهل لا قوة الاحساس والحيوية ... فهى الرغبة فى جمع شيئين متباعدين : القوة وحكمة المراس ...

فقلت للملكة :

ـ لقد سمعت صوت حواء ، تترجم عن قلبها .. ولكن هل للقلوب حقوق فى هذا العهد السحيق ؟

ـ أجل ! فكثيرا ما يحترم الآباء رغبات البنات والبنين، اذا عرفوا أنهم متحابون ، فلا يكرهونهم على ما لا يريدون

الا أن يكون مانع من موانع التقاليد وأوضاع العرف
ـ وبعد الزواج يا مولاتى ، هل تخفت أصــوات الهوى ونشيده الحلو النغمات ، ويبطل ذلك الغزل الرقيق ليحل محله الواقع العملى العارى عن الطلاء والتزاويق ؟..

ـ لا ! فالزوج العاشق يظل ينادي زوجته « يا أختاه »، وهى تناديه أيضا « أخى » ... ويظل التعاطف الجميــل بينهما سائدا ...

ـ لعلها مرادفات اللغة ، فهل كلمة أخت تعنى الزوجة ، وكلمة أخ تعنى الزوج ؟

ـ كلا ! فاذا كانت قضية فى المحكمة لم يستعمل هذان اللفظــان بذلك المدلول التدليلى ، وانما يقال زوج ويقال زوجة (« هاى » و « هيميت »)

مراسم الزواج

فقلت للملكة :

ـ ومراسم الزواج يا مولاتى ؟

ـ ابسط مايكون.. وحسب اتفاق الآل من الطرفين ، وأهم ما فيها « زفة العرس » من بيت الفتاة الى بيت الفتى، ومن حولها الأهل والصحب يحملون الهدايا والألطاف . فليس فى حياة المرأة الا موكبان حافلان : موكب الزفاف الى الزوج ، وموكب الزفاف الى القبر . وفى كليهما يحمــل الأهل والأصحاب الهــدايا والتحايا ، زادا للعروس فى دنياها أو اخراها

ـ أما من عقد مكتوب ؟..

ـ هناك ســجل لعلية القوم من آل فرعون فى قصره ، يكتب الكتبة فيه ذلك الحدث العظيم ، حفظا للانســاب من الاختلاط والنسيان ...

ـ أما من بركة من الكهان ؟

ـ اجل ! يمر العروسان واهلوهما بالمعبـد ، فيقدمان القرابين طلبا لليمن والخصب من آلهة النسل الخصيب٠٠٠

داء قديم

فقلت للملكة فى استبشار :

ـ أكاد أجزم من هـذا الذى سمعت وعرفت أن المرأة كانت عالية المكانة ، تتمتع باحترام كاف ، وللرجل فيهـا رأى حسن

ـ لا تجزمي ! فسـوء رأى الرجال ، ولاسيما الكهول منهم ، فى المرأة داء قديم٠فالادب الفرعونى لا يترفق بالمرأة كل الترفق٠٠فهي موصوفة فيه بالتفاهة ، والنزق ، وخفة العقل ، وسرعة التحول ، وتقلب الاهواء ٠ يخـدعها ظاهر الأمر ، ولا تحتفظ فى صـدرها بسر ٠٠ تحب الزهو ، وتضحي فىسبيله بأثمن الذخر ، ولا تبالى فى سبيلشهوة الساعة بالسمعة والطهر ٠٠ تكذب ارتجالا ، وتنافق عـلى السليقة،وتحب الخيانة ولو استبدلت الذى هو أدنى بالذى هو خير

فقلت للملكة :

ـ صدقت مولاتى ، انه الداء القديم ٠٠٠ ولـكنى أرى المسئولية فيه عليكم معشر الاجداد لا علينا ، فقد رسخ فى نفوس المحدثين بالعادة الموروثة ذلك الرأى القبيـح فى المرأة ، والناس على ما وجدوا عليه آباءهم من قبل

ـ أصبت ! ففىآدابنا اسطورة مأثورة ، أحسبها لا تزال قائمة فى الاسـماع هى بعينها أو نظائر لهـا من قبيلها ومعدنها

ـ وما ذاك يا مولاتى ؟

ـ قصة « بيتاوو » الفتى العف ، وامرأة أخيه الكبيرذات العرض المثلوم والعفة الرقيقة والمكر السىء

ــ اسمعينيها مولاتي مشكورة ..

ــ زعموا أنه كان فيما مضى من الزمان اخوان متحابان ، ربى أكبرهما أخاه اليتيم ، واسمه « بيتاوو » ، حتى كبر وصار فتى فارها . وحان أوان انحسار ماء الفيضان عن الارض ، وآن أن يبذر فيها الحب ، فمضى الاخوان الى الحقل . ولكن الحب نفد منهما ، فعاد الأخ الاصغر بيتاوو الى الدار ، فحمل على كتفه غرارة ثقيلة من البذور كأنها شيء خفيف الحمل ، فسر منظره قلب زوج أخيه ، وتحركت في أعماقها الشهوة الخبيثة ، وطغت عليها تلك الرغبة الجامحة ، فقالت له : « دع هذه الغرارة عن ظهرك يا بيتاوو ، وتعال اضطجع معي ساعة أو بعض ساعة ! تعال ، وسأحيك لك ثيابا جميلة » . فأبى الفتى أن يجيبها الى ما طلبت ، وقال لها : « انك حرام على كظهر أمي .. وزوجك مني بمنزلة أبي .. فلا تذكري هذا لي مرة أخرى ، وسأكتمه أنا عن كل انسان » . وتركها خجلى محنقة ، ومضى الى الحقل . فاتهمته عند أخيه الكبير بأنه راودها عن نفسها فاستعصت عليه ، وكان هذا الأخ احمق فقتل أخاه العف ...

ــ رباه ! كأني بهذه الاسطورة وقد سمعتها في صياغة أخرى ، وان كان الجوهر واحدا ...

ــ ربما ... ولكن للاسطورة بقية !

ــ وما هي يا مولاتي ؟

ــ لقد قتل بيتاوو مظلوما ، فبعثته الآلهة ، فعاش في القفار بعيدا عن النساء وكيدهن ... فكفاه ما لقي من ذلك في حياته الاولى ، فرقت الآلهة لوحدته وخلقت له امرأة شارك كل اله في خلق بضعة منها ، فجاءت آية في كل شيء .. ولكنها امرأة بعد كل شيء ! فسرعان ما خانته خيانة فاحشة بعد أن أوسعته عصيانا وشكاسة ، فتركها وتمنى على الآلهة فجعلته ثورا لينجو من تعقبها وكيدها . وكانت

هى قد وصلت بالجمال والدهاء الى سرير فرعون ، فجعلت فى ساعات الصفو تغريه أن يذبح ذلك الثور الجميل ! فتمنى على الله أن يحيله شـــجرة ، فسعت جهدها أن تجتث تلك الشجرة امعانا منها فى التنكيل به !..

ـ يالها من اسطورة !..

ـ وهى الى هذا صورة صادقة لقيمة المرأة فى نظر المصرى القديم ، اذا ارتفع عن عينيه نقاب العشق الجارف . فالمرأة مجتمع الرذائل ، ولا وفاء ولا أريحية الا فى الرجل ...

ـ لاحول ولا قوة الا بالله !..

ـ ان القلة الفاسدة من النساء هى سبب هـــذا الرأى القبيح فى المرأة المصرية . فالزنا كان ولا يزال من أقبـح العيوب ، وعقابه عند الفراعنة القتل والقاء الجثة للكلاب ، حتى لايتسنى لها بعث جديد فى الحياة الاخرى ... أما المرأة الفاضلة ، فتاريخنا حافل بالتغنى بها وتمجيدها .. وكم من قبر شيده أرمل لزوجته المتوفاة وسجل على جدرانه حزنه العميق عليها وتعلقه بها ... فليس فى الفراعنة ذلك الحياء الذى يذكره الشاعر العربى جرير بن الخطفى فى رثاء زوجته :

لولا الحيـــاء لهاجنى استعبار
ولزرت قبرك ، والحبيب يزار ...

فمن المصريين القدامى من كتب عن نفسه انه ظل ثمانية اشهر لايذوق النوم والطعـــام الا كارها لأن زوجته كانت مريضة ، وكان هو مضطرا لمرافقة فرعون فى سفره البعيد، حتى اذا عاد ووجدها ماتت ألقى بوجهه على الارض فمرغه فى التراب أمام قبرها جزعا على فراقها ...

ـ أكرم به من وفاء .. ولكن هل كان الفراعنة على سنة التعدد ؟

ـ ملوكهم أجل ... أما النـاس فيندر أن يجمعوا بين أكثر من زوجة واحدة ، وان كان ذلك فى ذاته ليس محرما تمام التحريم

أكبادنا على الارض

فقلت للملكة :

ـ والاولاد يا مولاتى ؟

ـ المصرى هو هو .. مغـرم بكثرة الولد ، يعزه ويدلله ويزهو به ... فهو يأخذ ابنه الطفل معه فى المحـافل ، ويصحبه فى عمله مزهوا به ...

ـ صـدقت مولاتى !.. فكم من بائع خضر جائل ، أو سائق عربة نقل يجرها حصـان أو بغل ، يصحب ولده الطفل ويجلسه الى جواره ، ويجعل فى يديه الصـغيرتين عنان دابته ...

ـ ذلك يا بنية شأن الفلاح فى الدنيا قاطبة ... فالولد هو امتداد الأب فى الدنيا ، وأمله فى التغلب على العـدم والموت والنسيان . وليس فى الدنيا ما هو أشرح للصدر من منظر راع عجوز وحفيده الى جواره ، يرفع الجرة الى فمه ليسقيه اذا ظمىء ... ولأن الابن امتداد للحياة ، ووارث للعمل والحقل والاسم ،كانت الفرحة بالذكر أشد من الفرحة بالانثى عند الميلاد .. فالولد هو الذى يعنى بدفن أبيـه ، وبصيانة قبره والسهر على راحته فى الحيـاة الاخرى .. ولكن ليس معنى هذا ان البنت كانت منبوذة . كلا ! فهى ريحانة البيت ، وسترين أى مكانة كانت لها فى الأسرة على عهد ملكى وزوجى اخناتون ...

ـ لقد كاد النهار يطلع يا مولاتى ، فهلا دخلنا القصر ، لنشهد يوما من أيام الحريم فى قصر أبيك العظيم ...

ـ انه لرأى وجيه ... فهيا ..

حريم فرعون

محراب حواء ..

قالت الأميرة ونحن نهم بدخول جناح الحريم فى قصر امنحتب الثالث والدها ، عزيز مصر وفرعونها :

ـ سنبدأ يا بنيتى بمحراب حواء ...

ـ محراب حواء ؟.. وهل لها محراب يختلف عن محراب الرجل فى عصر فرعون ؟

ـ أجل ، وفى كل عصر .. فمحراب حواء يا بنية الذى تستقبله اذا طلع الصبح ، وتستقبله اذا جاء المساء ، هو ديوان زينتها وزخرفها وحليها ...

ودخلنا ذلك الديوان ، أو ذلك المحراب ، فاذا سيدة ممشوقة القوام ، بيضاء البشرة فى حمرة ، وقد جلست فى مقعد ذى ذراعين ، له ظهر عال ، وفى يدها « مرآتها » ، على هيئة قرص من الفضة المصقولة ، ولها يد من الآبنوس المطعم بالذهب فى صورة أعواد البردى ...

وأما الوصيفة المكلفة بالتجميل فمنهمكة فى جدل غدائر رفيعة من شعر سيدتها القصير ، كما هو معهود فى شعر نساء هذا الجيل ، وقد رشقت الشعر الذى لم تضفره بعد بدبوس من العاج ..

وذلك عمل يطول ، ويلزم له الكثير من الأناة والصبر ، وهو أطول على السيدة التى لا حيلة لديها فى هذا الانتظار من قراءة مثلا ... ولهذا رأينا فتاة تدخل فتصب لها كأسا من نبيذ ، تحسوه السيدة فى تلذذ ، ثم تأخذ الفتاة فى الغناء والعزف لتدخل السرور على سيدتها

وأقبلت بعد لحظة عاملة الأظافر ، فجعلت تصقل أظافر القدمين وأظافر اليدين ، ثم طلتها بدهان يشبه مثيله من أدهنة الاظافر فى هذا العصر ...

فلما فرغت الحلاقة من تصفيف الشعر ، انثنت نحو الوجه تدلكه بالعطور المختلفة والزيوت ، من آنية من المرمر الملون مختلفة الأشكال ... ثم أخذت شيئا من الكحل فى مرود فكحلت عينى سيدتها ، وجعلت لهما ذلك الشكل اللوزى المأثور

وعندئذ انتهت مهمة الحلاقة .. فانحنت بين يدى مولاتها، وتركت المكان للوصيفات لينتقين للسيدة ملابسها وحليها ذلك النهار ... فبدأن يضمخن جسمها وصدرها وذراعيها على وجه الخصوص بعطر عريق الطيوب . ولم أملك نفسى أن أصيح :

ـ يا له من عطر !

فقالت الملكة :

ـ وهل ادهشك أمر العطر وحده ؟.. انظرى الى القوارير

فنظرت ، وفغرت فمى :

ـ رباه ! انها من زجاج ملون !

ـ أجل ! فقد عرفنا الزجاج الملون قبل العالم الغربى بآلاف السنين .. وصنعنا منه هذه التحف الغوالى . والآن انظرى مغرفة الطيب هذه

ونظرت ، فاذا ملعقة من خشب ثمين ، مقبضها على هيئة أعواد الزهر، وعليها غطاء اذا انطبق غدت مثل برعم الوردة، واذا انفرج كانت أشبه بزهرة متفتحة ... فلم أملك نفسى أن أهتف مبهورة بهذا الابداع :

ـ تبارك الله فيما خلق !

ـ والآن انظرى ! هذا شفوف من رقيق الكتان ، يكاد لا يرى ، ولكنه متين الى أقصى حد ...

ولبست السيدة هذا القميص الشفاف ، ومن فوقه ثوب كثير التمريجات ناصع البياض شفاف كذلك ، ينعقد على الثدى الأيسر ، كاشفا عن الثدى الأيمن ، مفتوحا مما دون الخاصرة الى أسفل حتى القدمين

وبعد ذلك حل دور المشرفات على الحلى والجوهر ،فالبسن السيدة أساور فى الذراعين والمعصمين ، وخواتم ثقالا فى أصابع اليدين...ثم زين الشعر بأمشاط مرصعة باللؤلؤ والياقوت ، وحلين الرقبة بالقلائد المصنوعة من ذهب النوبة

حتى اذا انتهت الوصيفات من ذلك ، على عزف القيان وغنائهن ، رجعت السيدة النظر فى المرآة ، حتى رضيت عن نفسها ، فصرفت الوصيفات باشارة من رأسها ...

فقلت للملكة :

ــ من السيدة ؟

ــ انها بنت ملك ، وزوج فرعون .. انها بنت صاحب النهرين . هى « جيلوخيبا » بنت « دوشراطا » ملك الفراتين من أقصى الشرق ...

ــ ليت شعرى ، أين أقصى شرقكم من أقصى شرقنا الآن !؟

ــ صدقت .. ولكن أى خير فى ترامى الآماد اذا كثرت بها الاحقاد ، وشقى باتساعها العباد ؟ ما علينا !.. أتدرين بكم جارية زفت هذه الزوجة الأثيرة الى فرعون ؟ ثلاثمائة وسبع عشرة جارية من أجمل نساء المشرق كافة ... كلهن صرن حظايا يتـــداولهن فراش فرعون مع الحظايا الأخر والزوجات بنات الأسر ...

الملكة العظمى

فقلت وأنا مبهوتة مذعورة :

ــ وأمك الملكة تى ، ما مكانها من ذلك الحشد الهائل من الاناث ؟.. لاعجب أن تضيع بينهن ويضيع أثرها ..



الملكة « تى » والدة نفرتيتى

ـ لا وأبيك ! لم تضع مكانتها ولم يهدر قدرها !٠٠ لقد بنى بها وهو بعد فتى حديث عهد بعرش لم يصل اليه الا بفتوى الكهان وأسطورة ولادته لآمون كبير الأرباب ٠٠ تخيرها قلبه من بنات هذا الشعب ، مصرية لا شك فى مصريتها ، من أب كاهن ، ولم من سلالة كهان٠٠٠فرفعهما وأعلى شأنهما ، وجعل لها المقام الأول فوق هذا الوادى المقدس

ـ لقد أشاع قوم أن « تى » من بنات ملوك المشرق ، مما يلى الفراتين ٠٠٠

ـ كذبوا وما صدقوا ٠٠ فهى مصرية خالصة المصرية٠٠

ـ ولكن هل تسنى لابنة الشعب أن تتكيف بحالتها الجديدة ، فتصير أهلا لهذا المقام الذى لايدانيه مقام ؟..

ـ عجبا لنفوس بنى الانسان ! ان من بنات الشعب من أهلهن القدر للملك وهيبته وسماحته ٠٠ وان من بنات ذوى التيجان من ترينهن فتحسبينهن ـ مظهرا وشارة وحديثا ـ من أعم العامة .. وليس هذا شيئا نادرا فى اى عصر من عصور التاريخ ٠٠

ـ هذا حق يا مولاتى ٠٠ وقد شهدنا مصداقه فى كثير مما ترامى الى سمعنا فى هذا العصر الأخير ٠٠٠

ـ يضاف الى هذا أن « تى » وهبت من جمال الروح ورجاحة العقل ونفاذ النظرة فى كل امر ، ما جعلها كاملة السيطرة على ذلك الزوج العجيب ٠ فهى عنده ريحانة القلب،ونزهة العقل والخاطر ، وميناؤه اذا عصفت العواصف أو أصابه السأم من التجوال فى بحار الملذات . فلم تكن كضراتها متاع جسد وعليقة غريزة ٠٠٠ فالغريزة عمياء ، والجسد لا يميز الخبيث من الطيب ٠ لهذا كثر تجوال أبى لأنه كان رجلا منهوم الغريزة ، حتى قيل عنه انه رجل

لايمل النساء . ولعمرى انه ليس فى الآراء راى اخطأ او أفسد من هذا الرأى البدائى !

ـ وى !٠٠ آلاف النساء يملكهن ، ولا يقال انه رجل لا يمل النساء ؟..

ـ نعم ! فالذى يتنقل بين الاشياء من جنس واحد ، ولا يستقر عند واحد منها قط ، رجل ملول لهذه الاشياء، يبحث أبدا عن شىء منها لا يمله ولا يضيق به ٠٠ ولكنه لا يجده أبدا !

ـ يا له من تأويل !

ـ أما أمى الملكة العظمى «تى» ، فلم تكن ضمن « مقولة » هذا الحشد من الاناث . فهى وحدها كانت « أنسانا » . كانت واحة قلب فرعون لا حان خمره ولا ماخور تبذله ٠٠ لهذا وقف عندها وأخلد اليها ٠ ولكنها لم تعصمه بهذا الاخلاد والاطمئنان المستقر عن طلب « الاناث » طلبا لايفتر. لانها لا تغنى عنهن ، كما لايغنين عنها !

ـ يا له من تحليل ٠٠ أو تعليل ٠٠٠

ـ بل هو علم اليقين ٠٠ فما رأيت أمى محزونة قط لما ترى من ولع أبى بالأناث ، فما كانت تراهن مثلها ولا ترى نفسها مثلهن ٠ وكانت تدرك أن الفارق بينها وبينهن فى الفطرة وفى وجدان أبى فرعون واضح راسخ ٠٠ فلم تغر، وربما كانت عونا له على بعض ما ينشده من لذة فى هذا الميدان توكيدا لترفعها عن منافستهن ، وعلوها عن دركهن مهما علا نسبهن واستطال ، وفيهن بنات الملوك والأمراء ٠ أما أبى ، فكان توكيده لهذا المعنى سافرا واضحا ، فما بنى ببنت صاحب النهرين وبأخته من قبلها الا سجل فى وثيقة ذلك الزواج وتذكاره الرسمى ، مكانة تى ومقامها الاسمى ، وانها كانت حاضرة على رأس الحفل ٠ وسجل

كذلك حضـــور والديها الكريمين ، ليعلم من لايعلم ان اى زواج لن يبلغ زواجه من تى ، وان صلته بهـا أرقى من كل صلة يعقدها ، وان « تى » هى الجوهر البـــاقى وما عداها بهرج لا يبقى · فهى كالأم من فرعون ، لأنها ملاذ الروح والفؤاد ، وليست مجرد ضجيعة فراش ساعة من ليل أو ساعة من نهار ·· فهل كنت تريدينها بعد هذا أن تغار ؟

ـ لا والذى نفسى بيده !·· ما من امرأة ذات قلب كبير وذوق مرهف أوتيت برهانا على مكانها عنــــد زوجها كما أعطيت تى وسط هذا الحريم ! انها لعمرى حرية أن تزهو وليست قمينة أن تغار

ـ كذلك كانت أمى ! لا تنزل بنفسها الى منافسة هاتيك الأناث ، وتزهو بعلوها فوقهن جميعا بمقامهـا فى الدولة ومقامها فى قلب فرعون ... فهى التى تبدو معه فى المحافل الكبرى ، وتتزعم معه المراسم،وتستقبل معه وفودالمصاهرة من كل قبيلة فى الشرق !· وأما أبى فقد انطلق على سجيته، لا يهتم بأحد من زوجاته وسرياته الأخريات ، لأنه لا يمنع عن شىء من ذلك متى اشتهاه ، فلا يتعلق بواحـدة منهن · ولكن يطلب المزيد دواما · فأهم ما يطلبــه من أمراء ولاياته وســـفراء عرشه فى الآفاق أن يتخيروا أسراب العـذارى الفاتنات ، فمبلغ اخلاص الامير أو الحاكم عنده هو مقدار تبريزه فى « توريد » هذه البضاعة من اللحم الابيض !

ـ انه فساد الحكم وضياع النخوة !

ـ هو ذاك ! فجزية الولايات كان معظمها من عـــذارى الولاية ، وسبيل الترقى هو هذا الباب الواسع الى مخـدع فرعون ، وسبيل المهادنة والحلف السياسى هو تقديم ملك الدولة الحليفة الى امنحتب الثالث ثلاثين أو أربعين عـذراء حسناء بكرا···فهذا « أرشيف » وزارة خارجيته لا يحفل بشىء كما يحفل بأوامره الى أمراء « أورشليم » و « جيزر »

وأمراء سوريا فى طلب « ترحيلات » من ذلك اللحم البشرى الطازج ! ذلك عدا الأميرات من بنات ملوك بابل وآشور وغيرهما ... حتى لقد يجمع بين الأميرة وعمتها أخت أبيها ... ولا يدخر فى سبيل تلك الزيجات الملكية نفقة ولا بذخا ، بين مهور واحتفالات ...

ــ لعمرى ان هذا لهو السفه بعينه ...

ــ نعم وا أسفاه ! ولكن فرعون كان حريصا على شىء واحد : فهو لم يرض أبدا أن يبادل ملوك الشرق صهرا بصهر ، فلم يقبل تزويج بنت من بناته لملك بابل ، مصرحا فى غير مواربة أن بنت فرعون لن تعطى قط لغريب !

فقلت للملكة :

ــ جزاه الله خيرا ! فلو فعلها لكانت لتلك الدول فى عرش مصر من بعده مطامع قد تنجلى عن مواقع ومعارك . ولكن الله سلم .. بيد أنى أتساءل عن ثمرة ذلك الحريم الضخم ..

ــ وفيم السؤال ؟ انه لم يجعل فى حريمه مقاما يضارع مقام الملكة العظمى تى ، فنسله منها هو خلاصة الخلاصة ، وهو وحده الحقيق بالذكر والعد ...

ــ وكم بلغ يا ترى ؟

ــ لم يبلغ كثيرا بلغة الارقام .. فلم يعش لأمنا تى الا أنا ، وأخوان هما تحتمس وامنحتب .. ثم مات تحتمس ، وعاش امنحتب ليحفر اسمه فى التاريخ بحروف من نور ، حين بشر باله واحد نور من فوقه نور !

مجتمع النقائض

تلاقى الاضداد

قلت للملكة عند هذا :

ـ انه لخزى ليس بعده خزى أن تتحول الدولة الى مهرجان شخصي. واني لأستميح جلالتك عذرا فى هذه الصراحة .. فقد انقضى كل شيء ، ولم يبق من هذا كله الا ما يعتبر به المعتبر

فقالت :

ـ هو ما تقولين ، وأكثر مما تقولين. فليس أفدح الخطب أن تكون الدولة أداة مجد شخصي أو أبهة وزينة وزهو للحاكم .. فذلك وحده يهون وان لم يكن من الهنات الهينات ، وانما الخطب الذى لاخطب يعدله ، هو التغير الذى يطرأ على تكوين النظام الاجتماعى والعرف الخلقى فى الأمة بسبب هذه السياسة التي يجرى عليها مثل ذلك الحكم .. فاذا كان فرعون رأس الترف والبذخ والأبهة ، فعلى سنته يجرى الخاصة وأهل النفوذ من رجال الدولة ووجوه البلاد .. فيرتفع رأس القصر ، ويشمخ بأبراجه الى أعنان السماء ، ويتلاقى معه الكوخ المتداعى الجدران فى صعيد واحد . فانه لا يكثر الذهب فى موضع الا لقلته فى موضع آخر ، ولا تكثر التخمة فى بطن الا اذا طوى بطن آخر على جوع وحرمان . فاذا قلنا عصر الأبهة فقد قلنا أيضا عصر الذلة والمسكنة . واذا قلنا عصر الترف ، فقد قلنا عصر الحاجة والفاقة ، واذا قلنا عصر الملذات واطلاق العنان للشهوات ، فقد قلنا عصر الرقيق ، تباع فيه الاجساد بدريهمات أو لقيمات ، ولا شغل فيه للمحرومين الا الترفيه عن المترفين.

فهو عصر النور والظلام ، وعصر الحرية والرق ، وعصر القدرة والعجز ، وعصر الرخاء والفاقة .. انه ملتقى الاضداد

فقلت للملكة ، لأهون عليها خطبها :

ـ مولاتي ! انه داء أصيل في كل بلد وكل مجتمع ، أن تكون فوارق بين الناس في الرزق ، وفي الصحة ، وفي الوسامة ، وفي الحظوظ ...

فقالت الملكة في حرارة تكاد تشبه الحدة :

ـ وهل قال أحدبتحريم الفروق أو رفع أسباب المباينة؟ ان الكون لا ينتظم الا بتلك الفروق . ولكنه يختل أيضا اذا زادت هذه الفروق على حدها المعقول . فنحن لا نعيب على زماننا ذاك الا أن الفروق قد تضخمت نتيجة للاختلال النفسي والخلقي ، لا انها سبب اختلال الاخلاق والضمائر كما قد يتبادر لبعض الاذهان

ـ عفوك مولاتي ! لم أحسن فهم مرماك من هذه العبارة الاخيرة

ـ أمرها يسير : فالناس منهم من يرى اختلال النفوس والاخلاق والذمم ناجما عن اختلال التوازن في الارزاق والحظوظ . وهذا خطل في الرأى ليس مثله خطل .. ذلك ان اختلال النفوس والضمائر هو الداء الأصيل الذىينجم عنه اختلال التوازن في الارزاق في المجتمع الواحد

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ ان حب الذات ، وتقديم الملذات ومظاهر الأبهة على ما ينبغى من العدل والنزاهة والعفة ، هو الباب الذى ينفذ منه الوصوليون الى الغنى والنفوذ ، فيحرم الضعيف منحقه القليل ، ويثرى على حسابه الأقوياء . ويسرى بين أهل الحكم نوع من التواطؤ على أكل حقوق المستضعفين ، لما بين أهل الحل والعقد من منفعة مشتركة وتواطؤ على الاغتصاب

والكسب الحرام . فتضيع ثقة الناس فى عدل الحكومة .
ولا يفلح مجتمع تضيع الثقة فى نظامه قط ... مهما بلغ
حسن مظهره ، وخلب الابصار بريق ذهبه وجوهره ...

ـ ذلك والله فصل الخطاب فى موطن الداء من كل مجتمع
أصابه ذلك المصاب . فالعدل أساس الملك ، والثقة بالعدل
أوجب من العدل

الأصيل والدخيل

فقالت الملكة مستدركة :

ـ ولكن اختلال التوازن ، وفساد الذمم ، وضياع الثقة
عند القائمين بالامر ليست مبلغ الداء فى ذلك الزمان .
فتلك الفتوح التى كثرت واستقرت تسربت منها الى مصر
معتقدات جديدة ، وصور فكرية وعرفية لم تعهد فى البلاد
من قبل. وأدرك المصريون ان آلهتهم ليست هي الآلهة الوحيدة
وأن معتقداتهم ليست وحدها ذات القيمة والرسوخ فى
السرائر ، فتزعزع اليقين الأعمى ، وتفتحت العقول
الساذجة ، ونشأت « فكرة العالمية » بعد أن كانت القومية
دينا لايتصور الناس سواه ..

ثم سكتت الملكة لحظة وهزت رأسها مبتسمة ، فقلت :

ـ أضحك الله سنك يا مولاتى !

ـ أمر خطر لى فى مفارقات أحوال بنى الانسان : ففى
ظلال العالمية تنشأ الفردية..وهى فى ظاهر الأمر نقيضها
الذى لا يجتمع معها . ذلك أن الانسان اذا آمن بالعالمية ،
قل ارتباطه بالمحور القريب من قبيلة أو أمة ، وأدرك أن
« الفرد » هو وحدة النوع كله وليس مجرد جزء من شعب ،
فكل فرد « عالم » بذاته فيه انطوى العالم الاكبر .
ومن العالمية التى تنطوى على الشعور بالفردية ينشأ التحرر
الدينى ، والتحرر الفكرى ،كما تنشأ الانانية وينشأ الكفر

بما تمثله الاديان القـــديمة ... وبين ذلك وبين الكفر بكل ديانة على الاطلاق خطوة واحدة • وهذا هو ما جعل الناس يعبدون شهواتهم ساخرين عمليا من نواهى الدين وفضائله

بين المعبد والقصر

فهتفت :

ـ عجبا ! لقد اقام الكهان من سدنة آمون هذا الفرعون على العرش ، فهل يكون هو عينه سبب بوار ذلك الدين؟•

ـ أجل •• تلك مفارقة أخرى فى بلد المفارقات • وقد عجب لها كهان آمون وسخطوا•ولكن ماذا كانوا يستطيعون أن يفعلوا ؟

ـ أليس من يولى قادرا أن يعزل ؟

ـ ليس دائما ! فان من يفتح القمقم فيخرج منــه الجنى لا حول له باعادته اليه متى شاء •• اذا كان الجنى أريبـــا حصيفا • وكان فرعون أريبـــا حصيفا • وماذا كان كهان آمون فاعلين بعـــد أن قالوا انه ابن آمون ؟ وماذا يقولون والعرش مقدس مصون ، لا يخلع شاغله ولا تمس ذاته ؟•• فما بالك وفرعون يغدق العطايا بغير حســـاب ، حتى جمع حوله أهل النفوذ كافة ، ودانت له جميع الرقاب ، فى زمن بيعت فيه الضمائر ورخصت فيه الذمم ، وأصبحت الغيرة على الحق شيئا مضحكا سخيفا أو ضربا من السفه والبلاهة!

ـ هى الأبهة والملك العريض اذن ، ومن تحت ذلك كله جسم عليل ، اجتمعت عليه الادواء التى يتعارض علاجها••

ـ وحتى هذا الملك العريض يا بنية لم يكن كأمس صرحا ثابت الدعائم ، وان بدأ فى شموخه ولألائه كأمس وأبهى •••فان الاخلاد الى الترف ، وتكليف الأمراء والولاة جباية المال ، وتجنيد الابكار لاشباع شهوات فرعون ، قد سمح للانحلال أن يدب الى ذلك الصرح فيتصدع شيئا فشيئا ،

وفرعون لاه عن ذلك كله ، يعالجه بالسكوت والاغضاء ، استبقاء للراحة • فليس يعنيه من بلاد الامبراطورية الا ما يأتيه من سمنها وعسلها ولحمها الابيض ! فالغفلة والشهوة طابع ذلك العصر المنكود •••

والعتاد والأجناد ؟

فصحت فى دهشة :

ـ والعتاد يا مولاتى والاجناد ؟ ماذا صار من أمرهم فى ظل هذا الفساد ؟

ـ مفارقة أخرى ! فالجيش قد صار ملاذ أبناء البيوت الوسطى ، يجدون فى خدمته شرفا لا يصلون اليه فى الخدمة المدنية •• فاحتفظت ألوية الجيش بذخيرة طيبة من كرام الناس ذوى الخلق والمبادىء ، وان بقى عمل هذا الجيش العتيد هو المشى فى المواكب والمحافل ••

ـ الله أكبر ! ألى هذا صار جيش فرعون وسيفه البتار؟•

ـ أجل •• وفرعون نفسه الذى كان يسبق الصفوف فى حومة الوغى كأنه اله الحرب شجاعة وبأسا ، تحول على سنة الترف تحولا طبيعيا ، فصار السيف الصقيل والسهم المريش لا يضرب فى صدر العدو ••• وانما فى قرن بقرة من بقر الوحش ، أو أيل من أيائل الصحراء ، أو تيس من تيوس الفلاة • لقد انقلب القائد صائدا ••• وانقلبت أكاليل المجد جلود ماشية من دابة الارض ! فالسيف هو السيف ، والقوس هى القوس ، والهمة هى الهمة ، ولكن فسد الزمان ، فتغير الميدان ، وصار الزهو بالصيد موضوع تصاوير تملأ الجدران ، وتنظم فيها القصائد الحسان !

ـ مولاتى ! تلك حملة شديدة على أب . . .

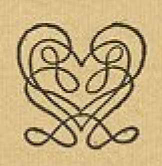
ـ رويدك ! لولا أن الصفحة طويت ولم يبق فى الدنيا مطمع لما انطلق اللسان ولما صدق البيان •••

ـ تلك يا مولاتى عيوب كثيرة ، فهل ليس لذلك الزمان حسنة واحدة ؟

ـ له حسنة لا شك فيها ، هى الشفيع الوحيد اذا عز الشفيع !

ـ وما تلك ؟

ـ ذلك الفن الجميل الذى تحرر من كل قيد ، وارتقى الى أفق لم يبلغه من قبل ، فقد خلف الترف والبذخ ذلك التفنن فى الصناعة ، وتلك المهارة فى العمارة ، وذلك الابداع فى التزويق والتصوير ...



حصاد الشهوات

أصبع الزمار ..

وقالت لى الملكة فجأة :

ـ والآن تعالى يا بنية لترى هذا الفرعون العزيز الجانب، القوى الساعد فى الصيد ، الطويل الباع فى لذة الكأس والوتر ... وقد بلغ آخر مرحلة فى العمر

ودخلنا حديقة القصر ، فاذا زهر مونق فى أحواض بين مربع ومثلث ، بينها ممرات منضدة بالحصباء،وعلى جانبيها أشجار النخيل والدوم ، والمر ، والبلسم والتين والرمان والسنط والتمرحناء والطلح (الاكاسيا) ... فكان لها نفح عجيب وظـــل رطيب . وأدهشتنى دقة الهندسة فى تخطيط البستان وتنسيقه ألوانا ، وأطوالا ، وأغصانا... فقلت :

ـ لعمرى يا مــولاتى ، ان لويس الرابع عشر لحقيق أن يغار من هذه الاناقة ، وأن يطامن من زهوه بحدائق فرساى التى ملأ الدنيا بها ضجة وفخرا ...

فالتفتت الى الملكة وقد زوت ما بين عينيها وأغمضتهما نصف اغماض ، وصاحت بى فى حدة :

ـ ومن لويس الرابع عشر اذا ذكر امنحتب الثالث ؟

فسكت .. ولكنها استدركت بعد قليل :

ـ ان الفارق بينهما فى المجد الدنيوى هائل...ففرعون كان سيد العالم غير منازع..ولكن اذا أقمنا الميزان للخلال وبواعث الاعمال وأهـــداف الرجال ، كان الرجلان فرسى رهان : همهما الأبهة والمتعة المسرفة . فليس فى أحدهما

قدوة لشهم كريم ‥ وكلاهما أيضا أكل الحصرم ، وضرس من بعده بنوه ، فدفعوا ثمن ما اقترف من ذنوب ‧‧‧ وى ! انظرى الى بعيد ‥ عن يسار ، تحت هذه العريشة ‧ أما ترين هذه القينة ترقص ؟

ـ بلى ! انها شبه عارية ‧‧‧

ـ البسى منظارك هذا ، فانه من نعم زمانكم الجليلة،فانى أعلم أن فى نظرك قصرا عن المدى البعيد ‥ وانظرى جيدا ماذا ترين ؟

ـ أرى أمامها شيخا جالسا فى اعياء ، متهدل الجلد ، متكئا على عصا طويلة ، وعليه برود ناعمة هفهافة ‧‧‧ ليت شعرى ! كيف يقدم شيخ أشرف على الموت على مثل هذا المجون ؟

فضحكت الملكة وقالت :

ـ عند امثالكم الجواب : يموت الزمار ولا تسكن اصبعه عن الحراك !

ـ وى ! أهذا فرعون مولاتى ؟

ـ أجل بنيتى ذاك أبى فرعون ‥ قد شاخ وهرم ولما يبلغ الخمسين من عمره بعد ‧‧‧

ـ لقد أراد الحياة عريضة ، وان لم يعشها طويلة ‧‧‧

ـ عريضة بالملذات يا بنية ، وبالزهو الكاذب والانخداع بملق رجال الحاشية « الأمناء » ! فقد استمرأ لذة العيش ، وما لذة العيش الا للمجانين ! استمرأها فاقبل عليها اقبال المنهوم ، لا يحلم بشىء وراء ذلك ‥ وأقدم على ما لم يقدم عليه من بعده الا أتباع ابيقور من مترفى روما المنحلين ‧ فقد كانوا يأكلون حتى الشبع من أطباق شهية جدا ، ثم يتقيأون ما أكلوا ، حتى يتسنى لهم الأكل مرة أخرى !

ـ وهل كان فرعون يفعل ذلك يا مولاتى ؟ هل كان يضع

ريش الطير فى حلقه حتى يستفرغ ما فى بطنه ؟

ـ كلا ! فان التشبيه مع الفارق . . . اذا نقلناه بحذافيره من المائدة الى المخدع ، كان صحيحا مطابقا .. فالمعاجين الموصوفة لتقوية الشهوة كانت هم هذا الفرعون ، لا يستكثر فيها أغلى الاثمان للسحرة والاطباء ، والسحر والطب قريب من قريب فى ذلك العهد ، لا يثق الناس بطبيب لا يزعمأنه ساحر ، ولا بساحر لا يبرىء سحره من داء .. فجنى ذلك الافراط عليه جناية كبرى ، اذ شاخ قبل الأوان

ـ مولاتى .. يقولون فى زماننا ان عمر الجسم هو عمر خلاياه وغدده ، لا بحسب السن ، ولكن بحسب القوة والنشاط .. فعمر والدك الحيوى أضعاف عمره الحسابى..

ـ صدقتم فى هذا التقدير ... ويضاف الى ذلك أن كثرة المخالطة بنساء كثيرات من رقيقات العفة لا تؤمن عقباها فى الصحة .. فكم من داء نجم عن ذلك ، فورثه الاولاد مظلومين ...

هذا ما جناه أبى ..

وصمتت الملكة لحظة كالمهمومة ، ثم قالت لى :

ـ أرايت الى تمثالى ذاك الذى اعجب به الناس وافتتنوا ؟

ـ أجل ...

ـ انه تمثال رأسى ... فلماذا لم أجعله تمثالا كاملا ؟..

فترددت قليلا ، ثم قلت محيرة :

ـ مولاتى ! لعل ذلك أليق بجلال الملك !

فصاحت بى :

ـ جواب لبق .. ولكنك وربى حمقاء اذا كنت تعتقدين هذا حقا !

وحدقت فى وجهى كالمغضبة أو كالمتحدية لحظة ، ثم كشفت بيديها عن بطنها ، فاذا هو متهدل الى أسفل ، فلم أملك نفسى أن أشيح بوجهى عنه ...

فألقت الثوب المنحسر من يديها فانسدل الى الارض ، وقالت ببطء :

ـ أرأيت ؟ ذلك ما زهدنى فى تمثال كامل ... وهو هو الميراث الظالم الذى ورثته عن أبى المتهالك على اللذات والشراب ، حتى تضخمت كبده ، واعتل طحاله ، وانتفخت أمعاؤه ..

ورأيت الملكة تحتد ، حتى خشيت من بوادر ذلك الغضب ، فأردت أن أسرى عنها بمجاملة هى الحق ، فقلت :

ـ مولاتى ! وهل تأسين على تمثال كامل ، وقد ضمن لك ذلك التمثال النصفى اعجاب العالمين ؟ وهلا غفرت لأبيك ميراث البطن المستور بالثياب ، نظير هذا الجيد الأتلع الذى لا يضارعه فى طوله الا جيد غزال يتغنى بجماله الشعراء ؟

ـ حماقة أخرى وضلالة جديدة من أوهام الناس الشائعة !

ـ وى !

ـ ان هذا الجيد الذى أعجب به الناس ميراث مرضى آخر ... ولكن الانسان جبل على مداراة العيب ، وعلى أن يجعل من الضرورة فضيلة !

وأطرقت لحظة ، ثم قالت وقد وجدتنى صامتة لا أحير كلاما :

ـ وأزيدك علما بذلك الميراث « الجميل » : أترين الى هذا التاج الذى يزين رأس تمثالى ، حتى صار علما على نفرتيتى ؟

ـ نعم ! وانه والله لطريف رائع ...

ـ ذلك فضيلة أخرى ندين بها للضرورة الملحة ! ان رأس اخناتون أخى ورأسى انا شبيهان فى الاستطالة المرضية

المنفرة ... ولكنه رجل ، وأنا امرأة لا قبل لى باعلان القبح على الناس ... فجعلت من ذلك القبح سبيلا الى الجمال ، فكان هذا التاج البادى فى التمثال ...

وأطرقت مرة أخرى مهمومة

بقية الحصاد

فلما طال اطراقها قلت لها :

ـ مولاتى ! لقد ذهب الماضى بخيره وشره ، ولا خير فى الأسى على ما فات ، فما فات مات ...

فضحكت وقالت :

ـ أو ما مات فات ، سيان ! صدقت ، ولكنها ذكريات ممضة حقا ، وبخاصة حين اذكر بكر اخوتى الذى فقدناه يافعا ... فلو عاش ذلك الأخ الفتى تحتمس .. ولكنه مات فى ريعانه وهو فى منف يدبر أمر الثقافة ، ويشرف عن كثب على تنظيم الجيش واقامة العمائر..مات أكثر الظن ببركة ميراث أبى من أعقاب الملذات والاسراف فى المجون والشراب ... فلما أدرك الهرم أبى فى استواء العمر،ورأى كهنة آمون يضمرون له الكيد ، وذكر كيف اعتلى العرش بيدهم فى غير حقه ، خشى أن يفعلوها من بعده ، فأشرك أخى امنحتب معه فى الحكم سنواته العشر الاخيرة .. ثم زوجنى منه ، ليكون مجلسه على العرش موطدا وبمأمن من غدر كهنة آمون ...

مات الملك
عاش الملك

صفحة طويت

وأمسكت الملكة بمعصمي بين اصبعيها الجميلتين وقالت :

ـ واخيرا يا بنية حم القضاء ، وأدركت المنية امنحتب الثالث ، فرعون مصر « الفخيم » ولم يجاوز الخمسين من العمر . . . ولكنه كان قد شاخ منذ ان بلغ الاربعين ، ولم تغن عنه السطوة والجاه العريض ، ولم ينفع فى رد ما خار من قواه طب بابل وآشور،بعد أن عجز طب مصر عن ابرائه. مات الأب فخلفه ابنه الشاب الذى سلخ فى التدريب على أعمال الملك عشر سنين ، منذ كان صبيا ، فصار الملك الفرد، المصون الذات عن غدر الكهان بحكم توليه العرش فعلا ذلك العقد الكامل من الزمن . وبذلك طويت صفحة ملك دام ثلث قرن من الزمان ، لتفتح صفحة جديدة ، قدر لاخي وزوجى ولى أن نكون قلمها ودواتها . . وقدر لهذه الصفحة ان تكون صفحة فذة فى تاريخ مصر القديمة كله . . .

فقلت للملكة :

ـ ولكن هل تستطيع الصفحة الجـــديدة ان تتحرر من جرائر الصفحة المطوية ، فلا تتأثر بما سطر فيها ثلث ذلك القرن من الحكم الفاسد ؟

ـ هيهات يا بنية . . هيهات ! فالتاريخ سلسلة متصلة الحلقات ، فاذا لم يصح أن التاريخ يتكرر ، فالذى لا شك فيه انه يتطور ، والتطور ظهور بعد كمون ، فما كان شرط لازم لما سيكون . . .

ـ حنانيك مولاتى ! ذلك قول أولى به شيخ كابن خلدون ! وانما مبلغ ما أتوق الى علمه عن صفحة فرعون الذى قضى ،

هو مقدار ما أثرت به فى صفحة فرعون الجديد

ـ ان الصفحة القديمة مشحونة بسخط جميع الناس . فمن عجائب الامور ان عصور الانحلال يشيع السخط فيها بين جميع الناس ، مع ان جميع الناس مشاركون فى الانحلال العام وفى أسباب ما يسخطهم .. فكل واحد من الساخطين يسخط على جانب العلة الذى لا ينجم عن نفسه ، أو هو يعلم مقدار مشاركته فى الفساد ولكنه يتعلل بأن الجميع قد فسدوا فلا سبيل أمامه للصلاح وحده ... ونظرة الى رجل سكير عربيد حين ينتشى ، تطلعنا عليه باكيا فى بعض الاحيان حزنا على سوء حاله وسقوط مروءته .. فهو يعلم انه فاسق وانه ساقط المروءة ، ولكنه عاجز عن اصلاح نفسه. كذلك المجتمع الذى يسرى فيه الفساد حتى يدمنه، نرى افراده عارفين مبلغ فسادهم ، ولكنهم عاجزون عن التوبة او زاهدون فيها لغلبة الشهوة عليهم ... وكذلك كان شعب مصر فى اخريات حكم أبى. فالمحافظون على القديم ساخطون ، وأصحاب آمون ساخطون ، وأهل النجدة على قلتهم ساخطون ، وأهل الولايات يتربصون الفرص للانتقاض، والجيش متذمر من هذه الميوعة الفاشية ، والشعب ساخط لهذا الفقر الذى يجثم على صدره ، ودعاة التحرر الناجم عن اتساع الآفاق وحرية الفكر ساخطون لبقاء آمون مخيما بظله على عقول الناس ... فكيف تكتب صفحة جديدة بعد هذه الصفحة دون عناء ، ودون تعثر؟ فمن ذا الذى يستطيع رفع كل هذا السخط المتناقض البواعث والاهداف ؟

ـ ذلك ما أرانى مشوقة الى معرفته على حقيقته

ـ سأريك اياه ، وسأريك اخناتون ، امنحتب الرابع ، وسأريك نفسى فى جواره رأى العين حين مات ابوه ، وصار اليه الأمر كله ...

ـ وكيف تفعلين ذلك ؟

ــ اغمضى عينيك . . .

واغمضت عينى ، فمسحت جبهتى بيدها ، فأحسست انى اغفيت برهة ، ثم صحوت فاذا أنا فى بهو ضخم ، فيه عمد رشيقة منقوشة ، واذا شىء يهمس فى اذنى :

ــ هذا قصر فرعون الراحل ، عن يمين النيل ، فى حضن الجبال النحاسية على حدود وادى العدم . انه قصره الذى بناه للملكة تى ، وجعل فيه بركة كبرى أسماها « مورد اللذات » . . . امضى

ومشيت قدما كالنائمة . . فاذا الصوت يهيب بى :

ــ يسارا . . يسارا . . من هذا الباب الذى يقف به الحارس . لا ترددى . انه لا يراك ، ولا يسمعك . ادخلى . . .

ودخلت . . .

تركة فرعون . .

قاعة كبيرة فى صدرها ايوان فخم ومن حول الايوان ــ على مبعدة ــ نفر من الناس فى ثياب الخاصة ، وان بدوا فيها كالغرباء عنها ! وعلى الايوان رجل حليق الرأس عاريه ، يبدو رأسه مستطيلا استطالة شاذة ، ومن تحت جبهته الضيقة عينان وأنف طويل كأنف الحمار ، وشفة عالية بارزة ، وعنق طويل ، وبطن متهدل . . . والى جانبه تلك الملكة التى كانت مرشدتى فى ربوع طيبة منذ قليل . ومن حولهما طفلتان صغيرتان ، احداهما تعبث بذقن أبيها ، والاخرى تجذبه من اذنه !

هذا اذن امنحتب الرابع ، الذى سيعرفه العالم بعد باسم اخناتون . . وهذه زوجه وبنتان من بناته ، وهؤلاء خاصته الاقربون مطأطئين رؤوسهم لايجسرون على النظر اليه ، على تقليد البلاط الفرعونى

اما الملك فلم تكن عليه شارات الملك ، ولم يكن شامخ



الملك « اخناتون » زوج نفرتيتي

الراس مقطب الجبين فى سمت التوقر .. بل كان مطرقا حزينا ..

ومدت الملكة يدها فداعبت يده وربتت عليها ، فرفع اليها عينيه . وتعلقت عيناى بهاتين العينين : انهما عينان فذتان . أجل انهما لا يمكن أن توصفا بالجمال الخارق ، ولكن شيئا فيهما يستوقف النظر: فكأنهما ليستا عينى بشر من اهل هذا العالم ، فليس فى عيون أهل هذا العالم كل هذا القدر من الاحلام البعيدة، والآفاق الرحيبة.. . انهما عينا حالم يتسمع أصواتا تأتى من وراء الافق ، من عالم غريب غير منظور ، وغير مسموع ، ولكنه يسمعها سماع اليقين ، ولا يحس لغيرها وقعا فى أذنيه الكبيرتين ...

ولكن أحلامه فى هذه اللحظة كانت حزينة ، أسيفة ...

وهمست الملكة فى أذن زوجها ، الذى انستنى عيناه كل هذا القبح الذى حشد فى سحنته الغريبة ، قائلة برفق ودعة :

ـ فيم الحزن والاكتئاب يا امنحتب ؟ هؤلاء المخلصون من رجالك الذين اصطفيتهم بنفسك من حولك ، يهنئونك بالسيادة على العالم .. ألا تهش لهم ؟ ..

وصمت لحظة ، ونظره الزائغ لا يزال متعلقا بذلك العالم غير المنظور ثم قال فى صوت بطىء المقاطع :

ـ السيادة ؟ اترينها شيئا يسر القلب ؟

ـ كيف لا ؟!.

ـ بل كيف أجل ؟! انها عبء .. انها جد الحياة المر لا زخرفها الماتع . الا أن نعيد صفحة طويت يا أختاه ...

وربت على كتفها تربيت المحزون المذعن للواقع البغيض...

وفى هذه اللحظة دخل رجل بدين ، فألقى بنفسه على الارض بين قدمى فرعون ، وجعل يهلل بالدعاء ، فالتفت اليه

فرعون . . . ثم اذن له فى الكلام، فقال الرجل البدين المزخرف الثياب بالقلائد والاساور :

ــ ليتهلل قلب مولاى فقد دانت له الدنيا وقربت اليه قطوف المسرات .. وتحت يدى عبده فى غرفات قصوره الملكية ست عشرة زوجة من بنات الملوك والاقيال ، واثنتا عشرة مائة من السرارى الحسان ، منهن سبع وخمسون ابكارا لم يمسسهن بشر ، جئن فى البريد الاخير لمولاى الراحل ، وكن تحت التدريب والتهذيب فى حجرات القصر . . .

فداعبت شفتى فرعون ابتسامة، والتفت الى الملكة فتبادلا نظرة سريعة ضاحكة ، ثم توجه الى امين القصر بهذا السؤال:

ــ كل هذا العدد الضخم ؟. انها حقا لمشكلة . . .

فاسرع الامين يقول جادا :

ــ عاش مولاى الى آخر الدهر ، ممتعا بالصحة والجمال والقوة . . . ليست فى الامر مشكلة ، فاذا اذن لعبده ملك يمينه تكلم . . .

ــ تكلم . .

ــ هناك اكثر من حل او نهج لسياسة الحريم . فاذا شاء مولاى اتبعنا نظام الطول ، الاطول فالاطول . او نظام اللون السمراء فالبيضاء . او نظام القرعة ، ايها خرجت قرعتها نالت الشرف العظيم بالاضطجاع تحت قدمى مولانا ليومه او ليلته . . .

فلمعت عينا فرعون الشاب ، حتى اشرقت اساريره بهذا الابتسام ، والتفت الى الملكة مازحا :

ــ نفرتيتى . . ما ترين يا اختاه فى هذا الذى يعرضه علينا امير الحريم ؟ اى هذه المناهج التى تنم عن رجاحة عقل وسعة علم ترينه اليق بالاتباع فى ملكنا الجديد ؟ . .

فبان فى وجه الامين ، وفى وجوه سائر الحاضرين الدهش

العظيم لتوجه الملك بهذا السؤال الى الملكة بالذات .. وفاتهم ما فى سؤاله من تهكم لاذع

وابتسمت الملكة وقالت :

ــ انها لحيرة عظيمة يا مولاى وشقيقى ... واحسبك وحدك المسئول أن تجد لك منها مخرجا ...

فهز فرعون كتفيه والتفت الى الامين، وقد تلاشى الابتسام من محياه وبدا عليه الجد الصارم ، ثم سأله :

ــ ليس المخرج هو الذى يحيرنى الحيرة الكبرى .. وانما هو المدخل الى هذا كله ! فما الذى خلق هذا الاشكال ، ومن اين لى هذا كله يا أمين القصر ؟.. ولماذا يكون لى كل هذا الجيش من النساء ؟

فصاح الرجل دون أن يرفع رأسه ، وهو يغالب الحدة التى تجيش فى صدره :

ــ مولاى ! أطالت الآلهة حياتك يا نور رع حور اختى .. انها تركة والدك العظيم . فقد كان والدك عظيما جدا يامولاى . كان له كل هذا ، وكان يعلم أن له اكثر من هذا ، فالعالم كله رهن مشيئة فرعون ابن آمون يا مولاى ... والآن قد صارت كل هذه التركة الجميلة ، اجمل تركة فى الدنيا ، الى مولاى ابن مولاى ، سيد العالم ...

ونطح الرجل الأرض برأسه علامة الاجلال ...

وهز فرعون رأسه مرة أخرى ، ثم قام يتمشى فى الحجرة طولا وعرضا . والكل كأن على رؤوسهم الطير ... وان خالسوه النظر فى عجب من هذا التمشى الذى لم يعهد فى حركات الملوك ، بل الآلهة من فراعين مصر ..

وعلى حين غرة ، اذ هو عند الايوان ، القى بنفسه فوقه بجانب الملكة والاميرتين ، ثم تصلبت اطرافه ، وتصبب عرقا !

وصاحت الملكة :

ـ انه الداء الملكى ! عاوده الصرع ...

وصاح واحد من الحاضرين تبدو عليه الطيبة وبساطة الاصل :

ـ انه مس الآلهة حين تتصل بينهم وبينه النجوى ...

وأشارت الملكة فانصرف الجميع ، عدا هذا المتكلم الذى قالت له الملكة فى لطف :

ـ ابق أنت يا مريرع .. واقترب من مولاك ....

فجعل يجلب له الهواء بمروحة فى يده ، واخذت الملكة تمسح عن جبينه العرق المتصبب ، حتى أفاق من غشيته بعد لحظات . فجعل يدور بعينيه فى أرجاء القاعة،ويتفحص وجه الملكة والاميرتين ومريرع كأنه يراهم لاول مرة ، ثم تهلل وجهه فى اعياء وقال :

ـ هذا أنت يامريرع ؟

ـ لبيك مولاى ...

ـ لقد غامت نفسى وثقل عليها هذا الميراث « الجميل » كما يسمونه مخلصين . ولكنى مهتم مغموم لهذا الميراث الذى يذكرنى مبلغ ما أمامى من أعمال جسام ، لست واثقا من مقدرتى عليها وقد استشرت وأشربتها نفوس الناس

ـ مولاى ! ان سلطانك لا يعلوه سلطان ، فاذا لم تفعلها انت فمن ذا يفعلها ؟ من للحق والعدل والخير والفضيلة والمحبة ورفع المظالم يا مولاى اذا لم تكن انت وليها وأمينها وسر الاله معك ؟

ـ اجل ، لقد غامت نفسى ففتحت لى صحائف الاسرار ، ولقيت فى طواياها ما رد على القوة واليقين والاقتدار .. ادع امين القصر ...

ودخل الامين،فخر على الارض أمام مولاه . فقال فرعون بصوت حازم على هدوئه الشديد :

ـ أمين القصر .. اسمع ما يأمر به مولاك فرعون مصر..
ـ المجد لفرعون سيد العالم وروح الاله آمون ...
ـ هذا الحريم لا حاجة لى به ...
ـ مولاى ! أموتا يمتن أم ...
ـ اسمع ! لاموت لأحد .. انما أريد الحياة للجميع !
ـ فرعون هو الحياة والصحة والبأس !..
ـ اصغ لى يا أمين القصر ... لترتب لهذا الحريم حياة طيبة ، ولتكن له منازل خاصة ، ولكنه لا يسكن بعد اليوم فى مساكن فرعون ...
ـ فرعون هو الحياة والصحة والبأس !.. أمر فرعون نافذ ...
وانسحب أمين القصر ، فهمس الصوت الخفى فى أذنى :
ـ اتبعه لحظة ريثما يختلى برجاله المقربين ، فان ذلك الامين قد تلقى الآن حكم الاعدام على نفوذه الاعلى ، لانه أمين الشهوات ، والشهوات كانت هى مقاد فرعون السابق الذى ليس بعده مقاد ...
وتبعته الى ديوانه غير بعيد ...

غضبة ((الأمناء))

وفى الديوان رأيت أمين القصر الذى كان منذ لحظة منبطحا على الارض ببطنه وشحمه ، وقد تطاير الشرر من حدقتيه ونفرت العروق بين عينيه ، وعنده رهط من كبار القوم عليهم شارات الحكم ، وأشعرت أن هؤلاء من أمناء البلاط ، فمنهم أمين الزخارف والكساوى ، ومنهم أمين الشراب والمائدة ، ومنهم أمين الحلى والجواهر .. وكلهم غاضب ثائر مع أمين الحرم ، الذى كان يرغى ويزبد ويهدر كالفحل وما هو من الفحول !..

ـ أهذا فرعون مصر الآن ، أهذه مهابة الفراعنة وعزة الملوك الامجاد ؟ اى هيبة لفرعون واى ابهة بلا حريم ؟ أملك هو أم درويش من الدراويش ؟

وصاح آخر ، أشعرت انه امير المراسم والحفلات والتشريفات :

ـ وماذا كنا ننتظر غير هذا وما هو شر منه ، من رجل رفع السوقة الى مقام الخاصة ، وجعلهم المقربين اليه .. جمعهم من مجالس العامة وصحون المعابد ، معابد الشمس ، ومن التسكع والفراغ والصعلكة ، فرقى بهم مالا يرقى النبلاء العريقون كابراعن كابر ؟..

ـ هذا مريرع مثلا ... طالب علم فى معبد ، من عامة العامة ...

ـ و « ماى » .. ذلك الصعلوك الذى كان يتسول ليعيش ؟

ـ ان العرش العتيد ، عرش آمون وضحى الشمس ، بات مهددا بالزوال مذ آل الى هذا الرجل التافه ، حلف الاوراق وقراءة الاوراد والمزامير ...

ـ ليشبهن أحد دراويش رعاة الغنم .. أولئك العبرانيين الانجاس

ـ أهى النهاية اذن ؟ ماذا يقول الناس ؟ وكيف يحترمون رجلا لا يريد النساء ، ولا الطيب ، ولا يغرق من حوله فى كرمه ، ولا يخشى عدوه سيفه ؟ واى نفوذ يبقى لنا ؟ وكيف تقوم الدولة بلا نفوذ ، وكيف يلمع التاج بلا زهو ولا أبهة ، وكيف يكون الصولجان مجردا من الصولة والسطوة ؟

ـ انه الليل ، ولكل ليل آخر .. فاصبروا وتربصوا ...

أصحاب النجوى

وهتف بى ذلك الهاتف المجهول :

ـ والآن الى بيت مريرع ، صفى فرعون ، الذى رفعه من الحضيض الى الذروة بما تنسمه فيه من بوادر الخير والاستقامة ..

وسرت كأننى فى حلم ، حتى بلغت بيتا غير بعيد من القصر، عليه مسحة النعمة الطارئة ، زخرفا وأثاثا . وفى بهوه جلس مريرع ، وشاب آخر سمح الوجه ، أشعرت أنه «ماى»... واذا على وجه الاثنين فرحة لا حد لها :

وقال مريرع :

ـ لقد آن الاوان أخيرا أن ينتهى كل هذا الفساد الذى ضاق به الناس حتى أوشكوا أن يخرجوا عن طورهم .. فما أسعدنا أن تغدو الدولة الى يد أمينة متعلقة بالحق ...

ـ وهل جلسنا الى فرعون يوما الا كان حديثه عن«الحق» الذى ضاع فى غمار من الاكاذيب والمخاتلات والتضليل ؟.. ما أسعد فرعون اليوم يا مريرع ...

ـ جانبت الصواب يا «ماى» . فقد لقيته اليوم وقد فرغ من تشييع أبيه الى مقره الخالد .. فاذا حيرة واهتمام يكاد يغلبه على همته ...

ـ وى ! انى قست فرحه على فرحى،فحسبته كاد يخرج من جلده . وما فرحى الا لجاه لا يبلغ من جاهه ما تبلغه الحبة من الجبل ...

ـ ولكنك نسيت شيئا .. نسيت يا « ماى » أننا نصير الى جاه بعد فاقة ، والى ذكر بعد اهمال.أما هو فليس شىء من ذلك عليه بجديد . فهو حقيق الا يزدهى بالسلطان ، وانما هو حقيق بالشعور بوطأة السلطان على كاهله .. وانه لعمرى لكثير . أم تراك نسيت يا « ماى » خروجه معنا متنكرا نجوس القرى ونشهد مجالس الكادحين اذا جلسوا للقيلولة فى ظل أشجار الجميز ، وكيف كان قلبه يتنزى وهو يرى مبلغ شقاء هؤلاء الناس عن كثب ؟..

ـ أجل اذكر ولا انسى . . .

ـ فكيف اذن تحسبه يفرح بالسلطان ؟

ـ لانه الآن قادر على ازالة كل ما لا يرضاه . . .

ـ لقد شط بك الوهم !. .

ـ وى ! وفيم الحزن اليوم ؟ ان الحزن فيما مضى كان مفهوما لانه غير متفرد بالسلطان ، ولانه يريد ولا يستطيع ما يريد . اما اليوم فعلام الحزن،وهو قدير أن يأمر فلا يرد؟

ـ بل انه اليوم أليق بالهم والغم . . ففيما مضى كان امامه الامل أن يتغير الحال ، وأما اليوم فلا أمل وراء قدرته . . فاذا لم يستطع كانت تلك قاصمة الظهر التى لا يقال لها عثار . . فهو لهذا مشفق من هول التبعة،عالم بمسئوليته الكبرى

فأطرق « ماى » لحظة ، ثم اشرقت أساريره وقال :

ـ لا أدرى . . . ولكنى على كل حال فرح مستبشر . وبينى وبينك ، اراه متعلقا بما لا ينال ، فلماذا لا يتمتع من الدنيا بما قيضته له الايام ؟ . .

ـ ها !. . لقد سرح حريم ابيه . . .

ـ ماذا تقول ؟ ايسرح افخر وأمتع حريم فى العالم ؟

ثم ضرب على فخذ مربرع ، وضحك ضحكة تمتزج فيها المرارة بالسخرية وقال :

ـ اننا سيئو الحظ يا صاحبى . . . لو ان الذى احبنا واصطفانا كان فرعون القديم ؟ أو لو ان لى انا هذا الحريم ؟

ـ اسكت « يا ماى » . . اسكت . اتكفر بالنعمة . . ؟

ـ أبدا . . انى اذكرها دواما ، ولكنى اذكر ايضا ذلك المثل الذى يقول : « ان الاقراط تعطى دائما لمن ليست لهم آذان » وعندئذ هتف الهاتف الخفى فى اذنى :

ـ دعى حديث الاقراط والآذان ، وهيا الى القصر مرة اخرى

النور الجديد

عود على بدء ..

وألفيت نفسى على درج القصر العريض المفضى الى البستان ، وأمامى الملكة نفرتيتى .. فحرت فى بادىء الامر أهى الروح المبعوث ، أم هى الملكة التى رايتها بجوار زوجها منذ حين ؟ ولكنها حسمت الحيرة بابتسامة مشرقة وجهتها الى ، فعلمت أنها الروح المبعوث لا الجسد الفانى . ووضعت يدها على كتفى برفق وهى تسألنى :

ـ أرأيت ؟..

ـ رأيت يا مولاتى .. وانى لمشفقة من ذلك العبء الرازح الذى أثقل كاهلك وكاهل زوجك ، فانها الظلمات المطبقة والهاوية التى لا يعرف لها قرار ، والمتاهة التى لا مخرج منها لمن تردى فيها ...

ـ هو ذاك .. ولكن بذرة الأمل فى النفوس الكبار لا تدع لليأس الى سريرة أصحابها سبيلا ، وان بعدت الشقة وقامت دون الغاية عراقيل وأهوال...ولئن قيل فى بعض الامثال : « قد يخرج الطالح من ظهر الصالح » . أو قيل فى كتاب كريم : ان الميت قد يخرج من الحى . فان الصالح قد يخرج كذلك من ظهر الطالح ، وقد يخرج الحى من الميت .. وكذلك خرج امنحتب الرابع من ظهر امنحتب الثالث، وولد عبد المظهر والابهة كاهن الحق والعدل والمحبة ...

ـ حكمة الله وسنته فى خلقه ...

ـ أجل ! ولكن ويح نفسى على انسانية يسىء اليها المسىء ظالما ، فيعيش ما عاش منعما ، ويمضى سالما غانما . حتى

اذا أراد أن يحسن اليها المحسن ، خذلوه وقتلوه أو عذبوه، ثم لا يسلم عرضه وذكره بعد موته من قالة السوء .. فلا هو انتفع بالعيش ، ولا نعم بحسن الاحدوثة بعد الموت .. فهو غارم فى الحياتين ، والفاجر الفاسق غانم فى الآخرة والأولى .. ولا حول ولا قوة الا بالله ...

ـ أهو العتب على الأيام ، ولا جدوى من العتاب ؟

ـ كلا ! ليس العتب على أبناء من غبر من الدهر ، وانما العتب على بعض من خلفوا السلف على تراثهم ، فلم يقسطوا .. والله يحب المقسطين .. فقد تلمسوا للرجل الزاهد العف المتجرد لتأييد الحق أوهاما من الاراجيف الكذاب ، ورموه بأقذع السباب ، في غير موضع ولا مبرر ، الا استغراب بعض من خلق الله لمن ليس من معدنهم أو على جبلتهم

ـ على رسلك مولاتى ! فالجروح قصاص ! وقد أعطيت الفرصة بهذا البحث لكى تميطى اللثام عما التبس واستغلق على افهام فئة من الناس من أمر زوجك العظيم ... فأفيضي، ولئن حصحص الحق فانه واجد من يناضل دونه ، والله ينصر من ينصره ولو بعد حين ..

العلة الأولى

فأطبقت الملكة شفتيها اطباقة الكظيم ، وأطرقت برهة ثم قالت :

ـ بماذا أجيبك ؟ فانى ان أنكرت قولك كفرت بالحق الذى دعا اليه اخناتون زوجي، وكفرت بالواحد الأحد الذى جعل له الصفات الحسنى وآلاء الخير واليمن جميعا ...

ـ اتقولين الواحد الأحد ؟ اتقولين آلاء الخير واليمن والصفات الحسنى ؟

ـ أجل .. كذلك دعا اخناتون الى الله ، وكذلك عبد

اخناتون الحق جل جلاله ، وكذلك علمنا ان الله خلق الكون، وأحب العالم …

— مرحى ! مرحى ! انى لفى عجب لا ينتهى من عجب ..

— اذا عرف السبب بطل العجب .. ونعرف السبب اذا بدأنا بالبداية ، وتحرينا مراحلها ومراقيها الى أقصى النهاية. فليست تعرف الغايات القصوى الا اذا عرفت على حقيقتها عللها الأولى ، لنرى كيف أشرقت الانوار من أعماق الهاوية

— ذلك والله لو لم أسمعه من مولاتى ، ولو أعلم أن مولاتى أعرق تاريخا وأقدم سابقة ، لقلت انه كلام حكيم اليونان ومعلمها الاول « أرسطو » !

— ولم لا يكون من كلامى لا من كلام حكيم اليونان ذاك ؟

— انه الفلسفة الاولى ، علم العلل الأولى والغايات القصوى ، ابتدعتها اليونان ولم نعهدها فى المأثور عن الفراعين …

— ألأن السقيا فى بلاد المشرق وربوع سوريا تعتمد على المطر ، ولا تعتمد عليه فى كنانة الله التى يرويها النيل ، يقال أن مصر لا تعرف الزراعة ، وان فلسطين وسوريا وحدهما تعرفان البذر والحصاد ؟..

— كلا وربى !

— كذلك ما تسمينها الحكمة الأولى ، علم العلل الأولى والغايات القصوى ، لم تعهد فى مصر لان الحاجة اليها مكفية بما يتيحه الدين المصرى القديم من تفسير وتعليم ، فهو كالنيل لا يرد ظامئا ولا يحيل على ماء الغمام امرأ من بنيه . أما اليونان ، فليس عندها ذلك المورد الزاخر المسمى بالدين المفسر المستقر المهيمن ، فاحتاجت النفوس الى التماس ريها من مورد آخر . ولعلك لا تجهلين أن عين شمس ومدينة الشمس ، التى تسكنينها فى هذا الزمان ، عرفت حصباؤها

وقع خطى افلاطون أستاذ ارسطو ، وخير من تفلسف على الاطلاق فى الأولين والآخرين ... كما عرفت أرض الكنانة من قبله « طاليس » دارجا فوقها يتلقى فتات العلم على كهان الشمس ...

موطن الداء

فقلت للملكة :

ـ آمنت يا مولاتى بالله ، وبأن الحكمة نبتت فى وادى النيل .. وان فرحى بهذا اليقين ـ علم الله ـ لفرح عظيم ..

فابتسمت الملكة متلطفة وقالت :

ـ وكيف لا ؟ و«صوفى» بلغة اليونان هى «الحكمة» ؟ فلست يا ابنة الصعيد بالبذرة المجلوبة الى ديار آمون من بلاد الزيت والزيتون ! .

ـ حياك الله يا مولاتى ... فهلا نبأتنى عن العلة الأولى عند اخناتون ؟

ـ نعم .. ولا ينبئك مثل خبير ، فقد فطن اخناتون الى تشعب الداء وتباين أعراضه،ولكنه فطن أيضا الى أن موطن ذلك الداء لابد واحد .. وان علاج الاعراض المتفرقة حمق وجهل وتخبط لا يفضى الى طائل ...

ـ والله يا مولاتى ، وما بى حاجة الى الايمان المغلظة ، ان هذا كلام لو كتب بالجواهر لكان دون حقه ، ولو عرفه أهل هذا الزمان لوفرت الانسانية على نفسها محاولات طائشة ما أكثرها .. وكأنى بذلك الوصف لمناهج علاج الجماعات قد خرج لتوه على الناس ، وليس أثرا باقيا من ألوف السنين

ـ ويحك يا بنية ! هل نسيت سريعا قول شاعرك الضرير البصير :

وذهبوا والبلاء باق ولم يزل داؤها العياء
حكم جرى للمليك فينا ونحن فى الاصل أغبياء !

- عفوك ! ولكن حب الانسان لنفسه ينسيه أو يلهيه عما يعلم من مخازيه ..

- لقد بحث اخناتون عن موطن الداء ، وعلة العلل فى انحلال الناس خلقا ، فانحلال الخلق هو أصل كل انحلال وتصدع فى مقومات الجماعة حتى المادية والاقتصادية منها. فالناس يفترى قويهم على ضعيفهم اذا فسدوا،وينصف قويهم اذا صلحوا...ولن يعدلوا بغير ذلك من التنظيمات والحدود والقيود ، الا أن يزول التفاوت فى القوى كافة .. وتفاوت القوة هو سر الوجود ، وزواله لغرض الاصلاح مثله كمثل وقف سريان الدم فى جسم انسان توسلا الى كف الداء عن الجريان فيه !

- كلام لاريب عندى فيه،وان أقام على الريب آخرون..

- لا علينا ، فلن نهدى من أحببنا ، والله يهدى من يشاء !.. لقد بحث أخناتون عن العلل فى فساد النفوس ، فوجدها فى ضياع الثقة بقيم عليا للحياة تتعدى اللذة العاجلة المحصورة فى أضيق نطاق يمس الفرد من الناس . فكأنما الحياة خلسة مختلس ، أيهم بدد منها ما استطاع ونهب وأضاع فهو الرابح المجلى ... فلا يبقى أحد من الناس على شىء ، ولا يتورع عن شىء ، لانه لا يرى شيئا وراء الغنم العاجل ومتاع الساعة الموقوت

الصرح المنهار

فقلت فى دهشة :

- والدين مولاتى ، دين مصر القديم ؟ أما قلت لى منذ برهة انه كالنيل لا يرد ظامئا ولا يحيل أحدا من بنيه وتابعيه على نبع للحكمة سواه ؟

- بلى ! وانه كذلك ..

- اذن ماذا دهى الناس ؟ أو ماذا دهى الدين ؟

ـ وهاهما معا ما دهى فلسفة اليونان بعد نهضتها الأولى، فذهب الناس مذاهب السفسطة والانحلال والتهالك على اللذات ... فذلك طور طبيعي يتلو طور النهوض فى الأمم ، ولاسيما فى أعقاب الحروب المدمرة ، وفى عصور الرخاء والترف .. فالامبراطورية المصرية الواسعة أتاحت للناس ان يكشفوا ان ثمة آلهة غير آلهتهم ، فتزعزع يقينهم فى سلطانها الشامل .. وكثر المال فسيطرت اللذة عليهم ، وانصرف كهان آمون أنفسهم الى الاستكثار من الاموال والنفائس ... فانهار صرح ايمان الناس بدينهم القديم ، وعبدوا الصنم الجديد ، صنم العصر ، المصوغ من الذهب الرنان ! واذ ضاع الايمان بالدين ، ضاعت قيم الحياة العليا التى تتعدى الوجود الفردى المحدود الى خدمة النوع أو خدمة القومية ..

ـ ألا عاصم لهم غير الدين ؟

ـ انهم لم يعرفوا من قبل شيئا ينتظم فضائل الحياة ومسائلها العليا غير الدين، لهذا انهار بانهياره صرح الفضائل الاجتماعية والخلقية جميعا ، الا فئة قليلة لم تبلغها الأزمة الجديدة ، هى أدنى الطبقة الوسطى ... فالعلة كلها ناجمة عن خمود جذوة الروحانية وطغيان المادية حتى غشت على بصائر الناس

النور الجديد

« فكان حقا اذن على من يلتمس نورا للناس وسط هذا الظلام الدامس ، أن يلتمسه من ذلك النبع الخالد ، نبع الروح ، فيدفع بها شيطان المادية حتى يصرعه . وليكونن ذلك النور باثقا من المصدر الاصيل ، لا تشوبه شائبة مما أودى بأنوار الدين القديم »

ـ مزيدا من النور يا مولاتى فى امر هذا النور !

– ذلك لك : ان الاديان القديمة كانت زلفى الى مصدر الحياة عند العامة ، وكانت عند الخاصة تجسيما لقوى ذلك المصدر المتعددة ، قياسا على قوى البشر التى يعهدونها فى أنفسهم ، فقد تصوروا الفطرة الفاطرة على صورتهم

– تصور معهود فى جميع الشعوب ، وأخشى أن أقول فى جميع العهود .. فالناس فيما يتصورون عبيد ما الفوا

– بذلك قامت أساطير الآلهة المتعددة ، وتناسى الناس رموزها مع تقادم العهد،فلما اتسعت الآفاق لم تعد تقنعهم تلك الصور ، كما يكبر الفتى فلا تقنعه الرشفة بعد الرشفة من ثدى أمه ، على بر ذلك الثدى به ، ويطلب ما يمضغه بقواطعه وأسنانه الحداد .. ثم فتنتهم الدنيا فلم يجدوا عاصما لهم منها بسند باق من دين متين .. ففطن اخناتون الى وجوب قيام ذلك الدين المتين ، باثقا من مصدر الحياة الأصيل غير مموه بالتجسيم والتشبيه ، بحيث يكون موضوع ذلك الدين بمأمن من الحدود ، والعجز ، والنقص . فلابد أن يتوفر له الشمول الذى يمتنع معه الشرك ، لأن الشرك حد ونقص ، والنقص لا يتفق وطبيعة الكمال . وكذلك أقام اخناتون صرح العقيدة على التوحيد الذى لا يعرف الشرك ، ولا يأتيه الشك ، وعلى التنزيه الذى لا يعتريه تشبيه ولا تمويه ...

والشمس وضحاها ..

فقلت فى عجب يكاد يشبه الانكار :

– مولاتى ، والشمس وضحاها ؟ أذلك أيضا من التنزيه الذى لا يعتريه تشبيه ؟ أليس « أتون » هو اله الشمس القديم ؟. أليس هو ذلك القرص الذى ترسم له أشعة تنتهى بأياد يتعبد أمامها اخناتون وتتعبدين ؟

– ليس أتون هو قرص الشمس يا بنية ، على سنة أهل

« ايون » أو عين شمس أو هليوبوليس ـ فى لغة اليونان ـ كلا ، وانما هو « الحرارة التى وراء قرص الشمس » ٠ ولو كانت لاخناتون لغة عصركم لقال : « انه القوة أو الطاقة التى تبعث النور فى قرص الشمس » ٠ فقرص الشمس ليس هو الله ، ولكنه نافذة الله يطل منها على العالم ! وليس وقوف اخناتون أمام قرص الشمس عبادة وزلفى ، وانما هو تحية

ـ تحية مريبة !٠٠

ـ ولماذا ؟ أتعرفين سنة النصارى فى التعبد ؟٠٠

ـ أخالنى أعرفها ٠٠٠

ـ أيريبك منهم أنهم يقفون أمام صليب من خشب يتخذونه قبلة لهم ورمزا لدينهم ؟ أيخالجك لهذا شك فى تنزيههم الله عن التشبيه ؟

ـ وهل ذلك كذلك ؟

ـ أجل ٠٠ وهل تعرفين حيرة الناس أيان يولوا وجوههم للعبـــادة ؟ لقد قيل لهم أن ولوا وجوهكم قبلة هى البيت الحرام الذى رفع قواعده اسماعيل بن ابراهيم . . . فهل فى ذلك ما يريب او يحمل على الشك فى تنزيه الله عن الحلول فى مكان دون مكان ؟

ـ كلا ٠٠٠

ـ اذن لا يريبنك من اخناتون أن يستقبل الشمس، لانها اظهر نعم الله التى يتجلى بها على الخلق . . وانه ليسمى آتون لهذا « رب قرص الشمس » أو « مولى قرص الشـــمس » ، اشعارا بأنه شىء وراء ذلك الظاهر المنير

الخالق والخلق

فقلت وكأن بى شيئا من ذلك الذى قالت :

ـ انها فيما أحسب أول دعوة لوحدانية الله بين الناس ،

وأول تنزيه له عن الشريك والشبيه .. من غير طريق الكتب المنزلة والوحي القدسي ..

ـ والبصائر يا بنية أليست من الله ؟ والعقول يا بنية أليست من الله ؟. أفي الله شك حتى يكون عرفانه عجبا يؤخذ له الناس ؟ . ان الجهل به ، على بيان جلاله ، هو الأحرى ان يقابل بالعجب والانكار !

ـ صدقت مولاتي .. فهذا ارسطو يقول بالمحرك الاول الذي يتحرك كل شيء في الكون حبا له وعشقا لكماله .. وهو عقل خالص ليس كمثله شيء

ـ ويك ! اين هذا من آتون ؟ ان اله ارسطو صاحبك لا يشتغل بأمر الكون ، ولا يعنيه منه شيء ، ولا يفعل ولا يريد ، ولا يحب ولا يهب . فهو أقرب الى الانفعال بالكون منه الى الفعل فيه .. فهو معشوق من العالم ، وليس له بعد ذلك بالعالم صلة .. واله اليهود جبار ذو انتقام ، رب شعب واله قبيل .. العالم متوجس من غضبه أن يثور فلا يبقى ولا يذر . أما اله أخناتون فهو برغم سبقه في التاريخ على كل ذلك ردحا طويلا ، اله محب للعالم ، منعم ، رحيم ، حليم ، بر بالخلق جميعا ـ من انسان وبهيمة ونابتة ـ بر الأب المحب ببنيه الصغار ، حتى المعوج منهم والعاق ... فهو أول دين قبل المسيحية بألف سنة ونصف ألف نادى على رؤوس الاشهاد ان « الله محبة » وانه « هكذا أحب الله العالم ... » وانه كذلك ولا مراء سما بالتصوف وسبحات الروح الى أفق لم يبلغه قبله أحد ، ولم يلحقه فيه لاحق الا قول ناسك من متصوفي الهند بعد ذلك بقرون طويلة ، هو حكيمهم سنقرة في منتصف المدة بين اخناتون والمسيح ، أي في القرن الثامن قبل الميلاد ..

وسكتت الملكة فترة قصيرة ، فقلت أستحثها :

ـ ما أسكتك يا مولاتي ؟..

ـ خاطرعجيب خطر لى٠٠٠الا يكون قول الهنودبالتناسخ صحيحا ؟

ـ وماذا أذكرك به ؟

ـ هذا التجريد العجيب بغير تلقين سابق ، وكأنه تلقى أسراره على يد اخناتون الذى سبقه بثمانية قرون ٠٠٠فهو يناجي ربه ، وكأنه يصيح من أعماق روحه المتجردة : « أستغفرك اللهم عن ثلاث : جعلت لك فى تأملك الصور وأنت بلا صورة ، وألصقت بك فى مدحك الصفات وأنت لا توصف ، وقصدت اليك فى الهياكل والمحاريب وأنت حاضر أبدا فى كل مكان ! »

ـ الله الله ! ما ألطف الحس وأصدق النجوى !

نجوى آتون

فقالت الملكة :

ـ أجل ٠٠ ما ألطف الحس وأصدق النجوى ! وكذلك كانت نجوى اخناتون لآتون،الاله المجرد المنزه الذى تتبدى للناس قدرته ونعمه من وراء قرص الشمس ، قبلة النجوى ومحراب الترتيل ، لانها المظهر الاكبر لذلك المخبر الذى لا تدركه الابصار ، وهو نبع الحياة الخالد

ـ ألا أسمع منه شيئا ؟

ـ بلى وكرامة :

« أنت المشرق بالبهاء فى آفاق السماء

« شمسا حية منذ أول الأزل

« يتجلى نورك فى مشرق العالم

« فيفيض على الارض بهاؤك

« أيها البهى القوى العلى

« هذى أنوارك تغمر خليقتك جميعا

« فى أقطار الارض قاصيها ودانيها

« تجمعها كلها مكبلة بقيود محبتك
« لا تفرط فى أحد منها

□

« تعاليت أيها المكنون الا عن آلائه
« يا من تستوى فى المغرب فكأن الموت لف الكون :
« فالناس نيام لو سلبوا لما أحسوا
« والضاريات تخرج من أوجارها
« وتدب الافاعى دبيبها المرهوب
« بيدك أمر الكون ، وهلاكه عليك هين
« لأنك أنت باريه ..
« فأنت الحياة ، ولا حياة الا بك

□

« بك ينمو ويدب ما فى الارض من سائمة ونبت
« وتحت نورك النافذ يمرح السمك فى جوف اليم
« يا مبدع الأجنة فى الارحام
« يا جاعل الخصب فى أصلاب الرجال
« يا مطعم الجنين فى أحشاء أمه
« ونافخ نسمة الحياة فى أوصاله
« فاذا خرج الى الدنيا أنطقت لسانه
« ودبرت له حاجة معاشه

□

« يا مبدع الفرخ فى البيضة
« ومانحه القدرة على الاكتمال فيها

« حتى اذا اكتمل أعنته على كسرها
« فيخرج منها مزقزقا يمرح هنا وهناك
« فرحا بالنور الذى وهبته اياه

□

« ما أعظم نعمك وآلاءك
« وان ما خفى علينا منها لأعظم
« أيها الواحد الأحد ، الذى تنزه عن الشريك
« لقد خلقت الارض كما شئت
« وليس موجود سواك
« فكل دابة على قوائمها ،
« وكل سابح فى اليم ،
« وكل محلق بجناح ،
« كلهم خليقتك سبحانك !
« برأت البلاد كافة
« وأرسيت كلا منها فى قراره المكين
« وقدرت الرزق للخلق أجمعين
« ثم جعلتهم شعوبا وقبائل أشتاتا
« وأنت وحدك واحد أحد »

مدينة الله

وسكتت الملكة ، وسكت انا كذلك لحظة ، فقـــد كنت مأخوذة بسحر ما سمعت ، ثم فتح الله على فقلت :

ـ سبحانه سبحانه ، وتعالى علوا كبيرا ... حقا ان من الشعر لحكمة ...

ـ وشاعر هو يابنية لايشق له غبار،وان عنى قوم بالشعر مثلبة لا تليق بذوى الاقدار والاخطار ...

ـ معاذ الله مولاتي .. انما هو شـاعر بالمعنى الرفيع ، لا شائبة فى خلقه من نزق ، والشعراء صيادح الحياة ، فى بيانهم يتبدى من جلالها ما يتبدى فى الاقحوان والنسرين ، وما أدري والله يا مولاتي ، بعد ذلك البيان المشرق والسحر المتدفق ، اى أمجاد فرعون كانت آثر لديه : أمجاد الشـاعر أم أمجاد العاهل القادر والمهيمن الآمر ؟

ـ الشاعر يا بنية الشاعر .. فقد خلت من قبل اخناتون الملوك ، ولكن ليس فى الفراعين من له نفس اخناتون المرهفة وسريرته الصادقة

ـ ما أحسبه الا قد فتن الناس بهذا السحر الحلال ...

ـ واها له ! لقد استشرى الفساد فى طيبة ، واضطر الملك النبى أن ينجو بدينه مهاجرا كمـا هاجر سائر أصحاب الرسالات العلوية ...

ـ وى ! انه الملك !

ـ وان، فالعقائد الموروثة، وانظمة الجماعات المرتبة على تلك العقائد اقوى سلطانا لدي النـاس من امر السلطان ... فناهيك اذن وقد طامن السلطان من شأن نفسه ونزل عن محله الرفيع

ـ ماذا ؟

ـ لقد عهد الناس فرعون ابن آمون ، ودرجوا على ان يروه ظل الاله ، وان يلقاهم فرعون لقاء الآلهة للعبيد... فاذا ذلك الاله ينكر الالوهة على نفسه ، وينزل عنها الى مستوى البشر ، غير مستبق من الالوهة الا صفـة الرسالة وامانة البلاغ المبين ... فلم يجد اخناتون بدا من الهجرة من طيبة ليجعل لربه العلى مثابا طاهرا لا يشركه فيه رجس من الاصنام ... فارتقى النيل ، حتى وجد تلك المثابة فى جنة من جنان الله لم تسكن من قبل ، عنـد « تل العمارنة » .

فأقام هناك مدينة أفق الشمس فى حضن جبلها الاشم .. واحتفل بتدشينها ، وبارك من حولها ، وجعلها حرما لا تطؤه قدم مشرك بآتون ، واقام فيها قصره الى جوار الهيكل ، وبنى للناس على وجه السرعة بيوتهم فى نسق رائع معنيا بجمال كل شىء فيها

ـ وهل يحرص الشاعر على شىء حرصه على الجمال؟..

ـ بل قولى : هل يفترق حس الجمال عن حس التدين فى الانسان ؟ ان الذوق هو منبع كل حس بالجمال الظاهر والجمال الاسمى على السواء . ولا تصدقى ان متذوقا أصيلا للجمال يمكن أن يكون من أصحاب التشاؤم ودعاة اليأس والحزن والعزوف عن المسرات ... فهذا اخناتون على ضعف تكوينه ، وشحوب لونه ، ووراثته المنكودة عن أبيه ، والحاح الصرع عليه ذلك الالحاح الذى يعرفه أكثر العباقرة ذوى السبحات المذكورة فى عالم الروح والفن ... نراه مع هذا لايبشر بشىء كما يبشر بالسرور والمرح والغبطة، لان لباب الحياة هو السرور ... وان تسبيحه لربه لا يحفل بشىء كما يحفل بالحركة المعبرة عند جميع الكائنات عن « فرح الحياة »

ـ ومن ذا الذى هاجر معه الى « مدينة الله » الجديدة ؟

ـ بقى المحافظون على ما وجدوا عليه اباءهم ، لانهم ناعمون فى ظل النظام القديم .. وتبعه فى مهجره من آمن به واكثرهم ممن لم يكونوا شيئا مذكورا ، فجعلهم اخناتون شيئا مذكورا ... واول هؤلاء صفيه «مريرع» الذى جعله كاهن آتون الاعظم .. حتى اذا استقر الامر فى العاصمة الناشئة ، ضرب اخناتون ضربته ، فأبطل كل عبادة سوى عبادة آتون، محطما أصنامها، مشردا كهانها ، مسفها أحلامهم، وتعقبهم بعذاب أليم ، حتى اوشك الا يبقى من عبادة الاصنام على أثر ...

لعنة الذهب

لو انصف الدهر

فقلت للملكة :

ـ أعظم بها من وثبة نحو نقاء العقيدة،وكمال النـاموس، وقيام الجمـاعة على التعاطف والتجـاوب بين الـكون والانسان ...

فقالت الملكة :

ـ وليس للعقيدة ، اى عقيدة ، من معنى سوى تفسـير الصلة بين الكون وضمير الانسان . وانما تتفاوت العقائد رقيا وسموا بتفاوت نجاحها فى تقرير تلك الصلة

ـ والعقيدة الصالحة ولا شك هى تلك التى تقيم صـلة الكون بالانسان على الخير لا على الرهبة والفزع وعلى العناية الحكيمة لا على هوى آلهة او قوى طبيعية لا ضابط لها .. فلا ريب ان عقيدة اخناتون التى دعا الناس اليها عقيـدة اكمل مما سبقها من العقائد بما لايقاس . فقد نقل الناس من الشرك الى الوحدانيـة ، ومن خصوصيـة الآلهة اى اختصاصها بملكة معينة من الملكات والقوى ، وبشعب معين هو شعب مصر ، فجعل الله رب الكون اجـمع ، وصاحب القوى والنعم ظاهرها وخافيها ، ونزهه عن الهوى والقسوة والاستبداد ، فالخليقة تحت سلطانه تسعى الى السرور ولا تعيش فى رهبة وفزع مقيم من بطشه ومقته

ـ انصفت يابنية.. ولو انصف الدهر كما انصفت لأدرك الناس هذا الذى ادركت،ولراوا فى الدين الجديد نورا ينبغى ان يصونوه ممن يريدون ان يطفئوه بأفواههم غيظا من الحق والخير وحنقا .. ولكانت مصر قد انتقلت من الضلالة الى

الرشد ، ومن الغي الى البر ، ومن الفســـاد واكل القوى الضعيف الى خطة عادلة وحكومة تعدل بين النــاس ...

ولكن الدهر لم ينصف ذلك الدين ، وتألبت على اخفــاق دعوته عوامل شتى ، ترجع الى اثنتين : غفلة العامة وأهواء من يستغلونهم ويسخرونهم على اختلاف ضروب الاستغلال والتسخير ...

لعنة الذهب

فقلت للملكة :

ــ ان الغفلة لا تقاس الا بمقياس مؤثرات المستغفلين ، من المستغلين والحانقين ، فما دعوى هؤلاء ؟

ــ اول هؤلاء يا بنية هم عبيد الذهب ، او سادة الذهب واصحاب المال ، فالاسمان مترادفان ...

ــ مترادفان ؟ وكيف يتساوى العبيد والسادة ، والمالك والمملوك ؟ ..

ــ بل يستويان ، وان بدا ذلك غريبا لاول وهلة ..

ــ وكيف كان ذلك ؟

ــ كلاهما يا بنية يعيش للغنى والثراء ، ولا يحفل بشيء غير تكديس المال أو تنميته ما استطاع .. فكلما اجتمع اليه قدر من المال كبير ، حسب نفسه قد ملك ما اشتهى ، وهو فى الواقع مملوك لما يملك ، مسخر فى رعايته وصيانته ، ولو كلفه ذلك خنق ضميره وصم اذنيه وطمس عينيه . فهو فى عرف الناس وعرف نفسه سيد الذهب وصاحب المال،وانما هو فى واقع الامر عبد الذهب وخادمه المسخر ...

ــ آمنت بالله !..

ــ ومن عجب انك لم تعرفى هذا وقد سبقت فيه الاقوال ، فى عصركم وفيما سبق عصركم ، وشاعت فى أمر الذهب وسلطانه الاساطير ، التى لا تعدو الحقيقة فى كثير ...

– وما ذاك يا مولاتى ؟ فان عندك علم الاولين والآخرين ، ونحن نحسبك مجرد تمثال فى متحف برلين . . .

فقالت الملكة باسمة :

– أول تلك الاساطير ، أسطورة مما حفظ عن أصحابك الاغريق ، ايام مجدهم العريق . فقد زعموا انه كان فى بعض البلدان ملك قريب من قلوب الآلهة ، فسألوه أن يتمنى عليهم امنية تجاب بلا قيد ولا شرط . . . وكان الذهب – ولا يزال – فتنة الناس وشهوة النفوس ، لا يشبع منه متخم ولا محروم . فتمنى ذلك الملك ، واظن انه كان يسمى «ميدا» أن يعطى نعمة الذهب ، فلا يلمس شيئا أيا كان الا استحال لتوه ذهبا . . . فكان له ما أراد . ففرح فرحا لا نظير له بهذه المنة العظمى التى حسبها اعظم ما أتيح للبشر الفانين من نعم الآلهة ، وأيقن انه سيكون سعيدا بها سعادة لا تشبهها سعادة فى المشرق والمغرب، فى الماضى وفيما يجىء من الايام . . وفتح الملك ميدا عينيه ذلك الصباح، فشك فى حقيقة الرؤيا ، ونفض عن نفسه الغطاء ، فاذا الغطاء يستحيل بين يديه ذهبا خالصا ! فكاد يصيح دهشة وفرحا لولا بقية من وقار الملك، أو لولا المفاجأة ، فتقلب فى فراشه وهم بلبس خفه فى قدميه، فاذا الخف يستحيل فى قدميه الى ذهب . . . فأيقن أن رؤياه لم تكن أضغاث احلام ، فجعل يهتف بامرأته الحبيبة، فجاءت الملكة من حجرتها على عجل ، فأخذها بين ذراعيه وهو فى نشوة الفرح والحماسة ليقبلها . . . فاذا الملكة الحسناء تستحيل بين ذراعيه الى تمثال من الذهب . . .

– رباه !

– فذعر « ميدا » ، وكاد يجن ، لانه ادرك فى هذه الساعة مبلغ النقمة التى تكمن فى هذه النعمة التى تمناها . وجعل يستصرخ الآلهة ان تسترد نعمتها وترد اليه زوجته ، وتأخذ ما لديه من المال والثراء فلا يبقى له من ذلك شىء . ولكن

صياحه ذهب ادراج الرياح ... ولم يفده الا تجمع أهل القصر وخدمه حوله وهو يصيح كمن به مس .. وان به علم الله لمسا من جنـــون ذلك الذهب . وحاول أولاده أن يقربوه ليهدئوا من روعه ، فجعـــل يصيح فى وجوههم أن ابتعدوا ...

ـ موقف هائل !

ـ الى اقصى حد .! فتصورى فزع الامراء أبنائه اذ رأوا امهم دمية جامدة بعد ان كانت فتنة حية . وفزع رجال الحاشية وهم يرون مالا يفقهون ، ويسمعون الملك يهـذى بما لا يعقلون ... ولكنهم حسموا الشك باليقين حين تطوع ذو نجدة منهم فقدم للملك الهائج كأسا من الماء ، وتنـــاول الملك الكاس فلم تتحول الى ذهب ، لانها كانت من الذهب أصلا ، ولكنه ما رفعها الى شفتيه ليعب منها حتى يطفىء النار المشبوبة فى جوفه ، حتى جمد الماء واســتحال الى نضار ... فخر مغشيا عليه ، لانه ايقن من هلاكه ، وانه لا نجاة له من عقبى شهوته التى تمناها ملحا وتلقاها فرحا.. فلا سبيل له الى طعام أو شراب ، وقد تمنى جرعة ماء وكسرة خبز قفار بما فى حوزته من نضار ... ولكن هيهات! وتمنى ضمة من ولده وبنته يودعهما قبل موته ، ولكنه كان ينظر اليهما حسيرا ملوما ، يبكيان ويبكي،وهو يقاوم مقاومة يائسة حتى لا يلثمهما فى ساعته الاخيرة ... فمات معذبا أشنع ميتة ماتها انسان قط ، وبالداء الذى حسبه ترياق سعادة لا تنال ...

عنصر الجحيم ..

فقلت للملكة مأخوذة بما سمعت :

ـ لا فض فوك يا مولاتى ! ما أبدع الرواية ، وما أعذب الحديث وأعظم الراوية !

ــ وهل سمعت الرواية الصادقة التمثيل، رواية «اندرسن» أديب الدنمركة فى العصر الحديث ، فقد ساق الحديث الى الاطفال فى أساطير هى أولى بالكبار من الناس فى هذا الزمن الذى طمست فيه الضمائر والنفوس ؟

ــ كلى آذان يا مولاتى ..

ــ زعموا أن الشياطين ارادت أن تكيد للناس كيدها الاعظم ، فقررت أن تنقل الى الارض عنصرا مدمرا تختلسه من عناصر جهنم .. واختلست ذلك العنصر المشئوم ، وهبطت به من آفاق السماء الى الارض . ولكن شهابا ثاقبا كان لها بالمرصاد ، فهاجمها قبل أن تنزل دنيا العباد ، فأحرقها ، ووقع العنصر الجهنمى من بين يديها ، فلاقاه الشهاب ، فتبدد ذرات دقيقة ملأت جو الارض ، ونزل بعض منه فى وديانها وقفارها . أما ما وقع فى الوديان والقفار والجبال فصار جرثومة مناجم الذهب التى نعرفها . وأما ما طار فى الهواء ، فدخل بعضه فى آذان الناس، ودخل بعضه فى عيونهم ، ونفذ بعضه الى السنتهم ، وتسرب بعضه مع ريقهم الى اجوافهم وقلوبهم ...

ــ لا حول ولا قوة الا بالله !

ــ أجل ، فمن دخل فى أذنه شىء منه لم يعد يصيخ السمع الا لحديث المال والثراء، ويصم أذنيه عما عدا ذلك من النداء. ومن دخل عينيه شىء منه لم يعد يرى فى الدنيا الا صفرة الذهب اللماع ، ولا يرى عدا ذلك شيئا مما تحفل به الحياة من الجمال الرائع والفن الرفيع . ومن دخل فى فمه شىء من ذلك العنصر لم يعد يتحدث الا عن المال ، ولا يتذوق شيئا من طعوم الحياة الا لذة الثراء ... واما من نفذ العنصر المشئوم الى قلبه والعياذ بالله من البلاء ، فذلك من ختم الله على قلبه ، فلا يشعر بشعور بنى آدم من عطف ، أو حب ، أو رحمة ، أو فتنة حس ، أو سحر بيان ، أو جمال صدقة ،

او صلة رحم ورابطة دم ... لان قلبه قد تحجر ، وصار هيكلا من الذهب ، لا يسكنه الا صنم الذهب ...

فقلت للملكة :

ــ صدق الشاعر وربي ...

ــ أجل صدق وما بغى ، فكذلك كان حزب البغى من عبيد الذهب على ايام اخناتون .. نفذ الى قلوبهم عنصر جهنم ، فلم يكن لهم شاغل الا مقاومة دعوة الحق التى تقوض سلطانهم وتنكس صنمهم الملعون ..

ــ وهل كان اخناتون عازما على مصادرة اموالهم ؟

ــ كلا ونعم ! فهو لا يتعرض لما لديهم فعلا من المال ، ولكنه يبشر باله محب عطوف يرعى الناس كافة ، ويريد الخير للناس كافة .. فلا بد من توزيع الخيرات الالهية بين الناس بالعدل ، كما تشرق الشمس على الكوخ والقصر بقدر متساو .. ففي نيته لو امتد به الاجل ان يرفع الحدود التى تفصل بين الحقول ، لان الارض ارض الله ، يأكل منها ابناؤه ــ اى خليقته المحبوبة ــ بما يرزقهم بعد أن يفلحوها بعرقهم . فكيف يرضى المتخمون من عبيد الذهب عن هذا الراى ؟ وكيف يسلمون بأن الناس سواسية فى الحظوة عند الله لا يفرق بين احد منهم ؟ وكيف يؤمنون بدين يحطم صنمهم ويقيم عقيدة الروح على أطلال المادية الجامدة والانانية الشوهاء ؟ كلا ! لن يسلموا الا كارهين ، ولن يقعدهم شيء عن مقاومة النور الجديد وصده بما اوتوا من قوة وحول

اصحاب الرياستين

فقلت :

ــ امر هؤلاء واضح بين .. ومن الطبيعي ان يقفوا هذا الموقف ، فما خطب سائر طوائف الناس ؟

ـ يأتي بعد هؤلاء القلة النافذة السلطان من عبيد المال او ملوك المال ، قلة اخرى اشد خطـرا واعظم قدرا : هم أصحاب الرياستين ، وعبيد الصنمين ...

ـ ومن هؤلاء ؟ ..

ـ كهان آمون : من لهم سلطان الدين ونفوذه الساحق، ولهم الى هذا سلطان المال وجاه السياسة .. عظم نفوذ معبودهم ، اله طيبة ، منذ قام أمراء هذا البلد بزعامة حرب التحرير فطردوا الهكسوس من مصر ، ثم طاردوهم فى شرق الارض حتى دانت لهـم تلك الامبراطورية الواسـعة ، من اطراف الفرات الاعلى الى الشلال الرابع من بلاد السودان ... فصارت لربهم الزعامة بين الارباب ، وكثرت اوقافه على مر الاجيال ، حتى صار له خير ما فى الوادى من الضياع ذات الثمر ، وصارت له المتاجر الكثيرة،فاجتمع لكهانه سلطان الدين وتهاويل دعاواه عند العامة ، وسلطان المال المتجمع فى قبضة واحدة منظمة ، فأحسنوا الدعاية ، وصرف الاعانات للاتباع والمبشرين والمروجين ، واستطاعوا ان يسخروا نفوذ الدين والمال فى السيطرة على السياسة ايضا،فملأوا الدواوين بصنائعهم،وملأوا القصر بعيونهم،وصاروا يضارعون فرعون فى كل شيء ، لولا ان لفرعون الجند الكثير ، ولشخصيتـه الدينية بوصفه سليل الآلهة قدسية تحصنه من العدوان ، او تجعل ذلك العدوان غير مأمون العاقبة على الاقل ... فأولئك الكهان عصبة منظمة محكمة ، لها اسرارها وهيبتها، فهم دولة فى الدولة ..

ـ وكيف صبر الفراعين الاقوياء على هذه المطاولة ؟

ـ لم يصبروا عليها ، ولكنهم كانوا على ضيقهم بهالايجدون لهم مخرجا ولا مخلصا من هذا الاخطبوط المتشعب السلطان .. حتى اذا جاء اخناتون واعلن دينه الجديد،وجدوا حديدا

يفل ما لديهم من الحديد ، بضاعته من بضاعتهم ولكنها انقى عنصرا واشرف مصدرا . وراوا سيفا قاطعا يهدد دينهم ويهدد مالهم ، ويوشك ان يقضى على صنميهم : صنم الدين وصنم الذهب . . فهل كانوا مذعنين مستسلمين ؟

ــ هذا غير معقول . .

ــ كذلك هبوا ، وقد وضعوا يدهم فى يد رجال المال واهل الغنى ــ وهم ايضا فى الواقع رأس طبقة الاغنياء نفسها ــ لكى يصدوا هذا الخطر الداهم . فجعلوا يسخرون سلطانهم الدينى على السذج ، ويبذلون الاموال عن سعة فى سبيل تشويه ذلك الدين الجديد ، وتسفيه صاحبه وتجريح شرفه وعقله لدى الشعب المخدوع . واشتد ذلك العداء بعد أن هجر اخناتون طيبة ، وسكن مدينة آتون (قرب ملوى الآن) وابطل جميع العبادات ، ولا سيما عبادة اله طيبه آمون ، فصادر الاموال ، وحطم الاصنام واقفل المعابد ، واصبح الصراع بين آمون وآتون صراع حياة او موت . .

فقلت لنفرتيتى :

ــ ذلك موقف أهل المال ، وأهل الدين ، فكيف كان اوساط الناس ؟ . .

فتنهدت الملكة وقالت :

ــ قيل خير الامور الوسط ، ولكن كثيرا مايكون الوسط شر الامور جميعا ، ولاسيما ادنى الوسط من أهل الحواضر ، لانهم اهل الطموح والطمع ، فيهم سوءات الادنين والاعلين على السواء . . .

ــ هل أفهم من هذا انهم كانوا حربا على الدين الجديد ، الذى يزمع أن يزيل من وجههم من يسدون عليهم المنافذ من أهل اليسار من مدنيين وكهان ؟

ــ لقد كان منهم الاعداء ومنهم الانصار . . ولكن الفريقين

جميعا كانوا حربا على الدين الجديد ، ان عمدا وان عفوا . . .

ــ وكيف كان ذلك ؟

ــ لقد علمنا ان الدين الجديد لم يكن ليستهوى أهل اليسار والجاه التليد ، فكان حقيقا أن يستهوى قوما من المستضعفين أو المغمورين من أدنى الوسط فى طبقات المجتمع ، من طلاب العلم وصغار المثقفين . . وأن يكون أسبق هؤلاء الى الدخول فيه النهازون والوصوليون ، ممن يرونه فرصة مواتية الى الجاه فى الدولة الجديدة ، تصطنعهم وتمنحهم الرتب والالقاب

ــ مولاتى ! تلك سنة الدول فى كل عصر الى يومنا الحاضر ، فالذى يقيم نظاما جديدا ، أو سلالة ملكية جديدة ، لا يأمن على دولته من رجال النظام البائد ، لانهم غير مدينين للنظام الجديد بشىء . فيصطنع رجالا لم يكونوا شيئا من قبل ، لكى يتفانوا فى خدمة النظام الجديد ، لانهم مدينون له بكيانهم المستحدث وجاههم الطريف . . فوجودهم رهن ببقائه وقوته . فلا عجب أن يذودوا عنه مخلصين

ــ أو منتفعين مأجورين ، همهم ماكسبوا وما نهبوا . أولئك تنقصهم ميزات السلالات العريقة فى النبل ، لانهم مرتزقة بغير أحساب . . انظرى من جعلهم بونابرت ملوكا وأمراء ودوقات بعد أن كانوا من الهمل والرعاع . اتراهم ظلوا على عهده من بعد أن زال ملكه ؟

ــ كلا يا مولاتى ! بل ان منهم ــ مثل برنادوت ــ من خانه وهو فى الميدان ، ومنهم من ترامى تحت اقدام الملك الجديد لكى يبقى على جاهه وماله . . . فاحترام الوصولى للدولة القديمة أكبر دائما من احترامه للدولة الجديدة . . .

ــ صدقت يا بنية . لأن الدولة القديمة كانت اكبر منه جدا اذ كان فيها حقيرا ، والدولة الجديدة ليست اكبر منه مطلقا لأنه صار فيها شيئا خطيرا . . . ومن هذا الجانب يأتى

حنين الوصوليين الى كسب رضى الدولة القديمة ، توكيدا لاعتبارهم الجديد ، ولكى يثبتوا لانفسهم انهم صاروا اصحاب شان بنفس المقياس الذى كانوا به ولا شأن لهم ، وليس نابليون الا مثلا من مئات الامثال ، فى كل بلد وفى كل جيل

ـ هـذا شأن الاولياء من الوصوليين .. وهو مفهوم ومعقول . فكيف كان يا مولاتى من هؤلاء امراء لم يدخلوا فى الدين الجديد ، فضيعوا الفرصة على انفسهم ؟

ـ ليس كل وصولى حقيقا أن يصـل ، ولا كل نهاز للفرصة يدرك الفرصة حقا . فالجاه سبيله ضيق ، فمن افلح من الوصوليين ونبه له شأن فى الدولة الجديدة ، أثار حسد من كانوا مثله ، أو من كانوا يحسبون انفسهم مثله او خيرا منه ... وان شاعركم العربى لصادق جين يقول فى هذا الصدد :

كل العداوات قد ترجى ازالتها   الا عداوة من عاداك من حسد!

ـ لله در ابى الطيب ! ذلك والله هو القول الحكيم !

ـ اجل ! فليست ثمة عداوة هى ابعث للتطرف فى الخصومة من الحسد الذى ينشب بين الانداد . وان ذلك العداء الاكبر لجدير ان يجعل الحاسدين يستميتون فى حرب الدولة الجديدة، حتى ينهار جاه من يحسدونهم بانهيارها ...

ـ ولكن الا يعقلون ان الدولة الجديدة ترفع الظلم عن المستضعفين وهم منهم ، وتزيل كابوس الاستغلال والعسف الجاثم على صدورهم ، ممثلا فى كبار الاثرياء وفجرة الكهان من رهط آمون ؟..

ـ اتقولين هل لايعقلون ؟ وهل كان للحسد عقل يوما من الايام يا بنية ؟ ان الحسود كالعاشق ، كلاهما لاعقل له !

انتقاض الاطراف

فقلت :

ــ لقد اجتمعت على حرب الدين الجديد شياطين المال والشعوذة والحسد ... فما أحرى سواد الناس ان يضلوا وراء هؤلاء الغواة ...

فقالت الملكة :

ــ مهلا ! لم يات اوان النظر فى أمر الشعب وما كان منه مع الدين الجديد . فتلك الشياطين الثلاثة ، شياطين المال والشعوذة والحسد انما تعمل فى الداخل ، على ضفاف النيل. ولكن ثمة عوامل كانت تفعل فعلها فى أطراف الدولة ، وأجزاء الامبراطورية المترامية

ــ لقد علمت يامولاتى ان أمر الامبراطورية قد جنح الى الاهمال والتواكل فى عهد أبيك امنحتب الثالث ، وانه كان لايعنيه من اماراتها الا ما تفىء عليه من مال وجوهر ونساء حسان ... وانه كان يتالف قلوب فريق من الامراء ليشترى ولاءهم أحيانا

ــ كذلك كان الحال .. وهو على عهد اخناتون كان أدعى الى الضياع مما كان على عهد أبيه ، لا لعيب فى اخناتون ، بل لمزية من اكبر المزايا اذا نظرنا الى الامر بمقياس انسانى رفيع

ــ وما تلك المزية التى اعقبت بلية ؟ ..

ــ ان هذا الملك كان رسول دين يقول بالتوحيد، وبالعالمية فى العقيدة والوجود ، لا تعرف ديانته التميز بين اللغات والحدود .. فهو لهذا حرى أن يكره العنت والاستبداد ، وأن يكون البشير الاول بالتنزيه والتجريد ، وبحق تقرير المصير للشعوب جميعا . فلم يكن قلبه يطاوعه ولا ضميره يسمح له بارغام الناس واكراههم على الخضوع لسلطان يكرهونه ، ولو كان هذا السلطان سلطانه هو !

ـ ما اسمى النظرة واقدس الفطرة !

ـ لولا انها طفرة !

ـ ولكنها تستهدف محو الاعنات والاثرة ...

ـ وان ! فالناس عبيد ما الفوا ، ولو كانوا كلهم كاخناتون، لما احتاجوا لاسناد الدعوة الى اخناتون . فالسقاء لايطلب ولا يذكر حيث الماء قريب ميسر ... فضياع الامبراطورية والتشاغل عن حفظها منكر عند المتنفعين بامتلاكها ليس بعده منكر ، لأنه تضييع منافع خاصة ، ولأنه أيضا جناية على القومية والمجد الوطنى ، أو هكذا يتسنى للمغرض أن يقول ويعيد ، فيؤلب الناس ويستنفر القلوب الى الحقد على « الخائن المفرط الذى بدد ميراث الاجداد »

ـ ياله من موقف شائك ...

ـ اجل ! وابعد من هذا فى الحرج ان كثيرين من الامراء راوا ان الفرصة مواتية للخيانة . او لعلهم انسوا فى فرعون ضعفا أو اهمالا لحماية أطراف الدولة ، فأوجسوا من هجوم الحثيين وغيرهم ، فيؤخذون اخذا شديدا ، فمالوا الى جانبهم وانحازوا اليهم ... وكان اشهرهم فى ذلك المسلك « عزيرو ابن عبد شراة » صاحب الاموريين ، الذى ظل يخادع فرعون ويمنيه بالولاء ، ثم انحدر مع الحثيين فانتزعا من مصر معظم ملك الشام وفلسطين لقمة سائغة ، لأن فرعون كان مشغولا بفتن الداخل عن نجدة من استنجد به من ولاته المخلصين .. حتى اذا افاق على الكارثة بعث اليهم جيشا صغيرا لم يصمد للعدو طويلا ...

ـ وى ! وفيم الجيش اذا كان يؤمن بالحرية لجميع الشعوب ؟

ـ وهل هى ثورة اهلية فى طلب الحرية ؟ كلا ! فلطالما استنجد به الاهلون ان يحميهم من غزو الحثيين .. ثم ان

اخناتون لم يكن مفرطا فى الامبراطورية طواعية ، بل لعله كان يميل الى الاحتفاظ بها لخدمة هدفه الاسمى ...

ـ عجبا! وهل يخدم التوحيد والحرية والعدل الاجتماعى بالفتح والاستعمار ؟ كيف يتفق هذان ؟..

ـ بل يتفقان! فان آتون اله الناس كافة وليس اله مصر وحدها ، فأدعى لنشر عقيدته فى الخافقين أن يكون تحت سلطانه الخافقان . بيد ان فتن الداخل ، وعبء الدعوة الجديدة عجلا بفقدان هذا الامل الكبير ، فاجتمع عليه كرب الخارج والداخل ...

الغفلة الكبرى

فلم استطع منع حسرة خالجت نفسى لسوء حظ هذا الرجل الذى جرد نفسه للحق والخير ، فاخطأه التوفيق فى كل أمر ، وقلت لنفرتيتى :

ـ ما اقساها محنة ، فليس فى كل ما اكتنفه موضع لمسرة أو استبشار

ـ وهل نسيت الايمان يابنية ؟ ان اخناتون كان اشد الناس يقينا بما وكل به نفسه من امر هذا الدين ، فاما اظهره او هلك دونه .. وان ما علمت من امر طوائف الرعية فى مصر والشام هو تألب الاهواء على الحق الذى لايعرف الهوى ... ولكن الاهواء لا تتم وحدها بغير عنصر الغفلة فى سواد الناس. وقد تم هذا العنصر واكتمل فى مصر أيام اخناتون . فكل سبب كان يدعو الشعب المصرى لمؤازرة اخناتون والحذر من ذوى الاغراض كهانا وثراة ومثقفين ، لأن اخناتون كان يحارب هؤلاء انتصارا لسواد هذا الناس .. فاذا هذه الاسباب نفسها هى التى تجعل سواد الناس يمالئون أهل الهوى ضد اخناتون : فيصدقون الكهان انه كافر، ويصدقون الاغنياء انه سفيه فاجر ، ويصدقون المثقفين انه خائن للامانة مهدر لمجد توارثته الاجيال كابرا عن كابر

أصل الداء

فقلت مستفسرة :

ـ انى أعلم ان غفلة الشعب هى اعدى أعدائه ومجتمع ادوائه . وانه بغير يقظة الامة لاخير لها فى شىء ، وليس اجمع لهذا الامر من كلمة الامام محمد عبده : « اذا فقدت الامة حرية رأيها وشجاعة ايمانها فلا خير لها فى استقلال ولا فى دستور » ولكن للغفلة فى ازمة اخناتون سببا خاصا ولاريب ، لأن دواعى البيان المستقيم لم تكن تنقص فرعون وأعوانه ومبشريه . فكيف مال الناس عنه وجهلوا حقيقته ؟

ـ لأنهم لم يفهموه .. اجل لم يفهموه على كثرة وسائله فى التفهيم ، وعلى وضوح أمره بحيث لايحتاج الى ايضاح لذى عقل مستقيم .. فالمنطق والمصلحة كلاهما كانا مجتمعين لدى الشعب المصرى لتأييده واتباعه ، لولا اختلاف الطبائع وغرابة المعدن ...

ـ اى طبائع واى معدن ؟

ـ معدن الروح العظيم اخناتون .. فهو معدن غريب لايألفه معدن عامة الناس .. فهو كالطير الغريب لايقبله سائر الطير فى الحظيرة فيوسعه نكالا ... وهل أغرب عند الناس منه وقد فطروا على الانانية والطمع ، فلا ينتظرون من قادر أن يتورع ، ولا هم يفهمونه اذا استطاع فامتنع أو تمنع .. لأنهم لو قدروا لما آثروا العفة ، فكيف يفهمون من يعف وهو قادر ليس فوق سلطانه رادع ؟.. هذا هو الداء الاصيل ، والعلة الخفية وراء جميع العلل التى قد تفسر بها رفض الناس لدعوة اخناتون .. وبغير هذا الاستغراب ـ والانسان عدو ما يجهل ـ لم يكن يقدر نجاح لدعاية اعدائه وارجافهم ...

وسكتت الملكة لحظة ثم ندت عنها ضحكة خافتة ، فقلت :

ـ اضحك الله سنك يامولاتي ..

فقالت وهي لاتزال تضحك :

ـ هو شيء من باب « منطق العواطف » ، وهو من احفل الابواب بالمفارقات في حياة الانسان الحافلة بالاعاجيب

ـ وما ذاك يامولاتي ؟

ـ ان فرعون كان الها للمصريين منظورا ، ينوب عن الآلهة المتوارية بحجاب في عالم الارباب ، فكان المصرى من عامة الناس يرى له في فرعون ربا ، والرب اعلى مراتب الوجود ولا مراء . حتى جاء اخناتون فقال : « لست ربكم الاعلى ! ما انا الا بشر ! اني انسان ورسول ، ولست باله ! فلا تعبدوا الا الهي والهكم الواحد الاحد » فساءهم منه هذا المقال

ـ عجبا ! انه خلصهم من عبودية سخيفة لملك هو بشر مثلهم .. !

ـ وهذا هو موضع المفارقة في منطق العواطف : فان الرجل منهم وقع في نفسه انه خرج من هذه الدعوة بصفقة المغبون : كان ملكه الها ، فصار مجرد انسان ! كان يملك الها ، فأصبحت هذه البضاعة التي كان يملكها وقد نقصت قيمتها كثيرا ... وما اشبه هذا بالخادم الذي يسخطه ان يكتشف ان سيده موظف في الديوان وقد كان يحسبه من الوزراء ... فمثل هذه النفوس تكبر في نظر نفسها اذا كبر سادتها ، فاذا صغروا شعرت انها تضاءلت بعد عزة ، وتطامنت بعد شموخ ...

العزة بالاثم

فصحت مغيظة محنقة :

ـ انها العبودية يامولاتي ...

ـ وهذا اسوأ ما في احوال المستعبدين . فان كل غل

يحطم ، الا ما كان مفروضا من داخل ، لانه جزء من فطرة الراسف فيه ...

ــ ولكن هل كان كل الناس على هذا الفرار ؟ ..

ــ كلا ... فمنهم من ابى واستكبر ، لأنه قد اخذته العزة بالاثم ، فقد كان حريا أن يقبل الدعوة من كاهن او مبشر ، اما وهى فرض يفرض من اعلى ، من مصدر السلطان ، فهو يستنكف أن يترك ما وجد عليه الآباء والاجداد نزولا على امر السلطان ، لما فى ذلك من شبهة الخنوع او الزلفى...

ــ وهذا لعمرى اشبه الناس بالقاضى الذى يظلم ليشتهر بين الناس بالعدل !

ــ اجل ! ثم لا تنسى موجة الانحلال والتبذل التى سرت فى عهد سلفنا ووالدنا ... فكيف يتخلى الناس عن الاسفاف والتحلل من كل قيد ، لينزلوا على قيد الفضيلة وناموس الروح ؟

ــ وهل خلا مجتمع يوما من فسق مستور او سافر ؟

ــ كلا ! ولكن شيوع الاستنكار العرفى للفسق بجانب انتشار الفسق دليـل على وجود « شخصـية معنوية » للمجتمع وحس خلقى دال على حياته وحيويته .. اما اذا انعدم ذلك العرف ، كان ذلك آية على زوال شخصية المجتمع المعنوية ، اى وحدته التى تبقى عليه تماسكه رغم شـذوذ افراده وتفرقهم اشتاتا ... وتلك هى نهاية الجماعة التى لاتنفع فيها رقية راق ولا طب آس

فسألت الملكة متلهفة :

ــ وهل وصل الامر الى هذا الحد ؟..

ــ نحمد الله ان لا . فقد بقى الريف المصرى بمنجاة من هذا الانحلال ، وبقيت الاسر المتوسـطة فيه سـليمة من الاضمحلال ، وتلك أصبع العناية التى حمت مصر من عواقب هذا الانتكاس الخطير ...

هذا هو الانسان

وما فرعون الا بشر ...

وتناولت الملكة شيئا من زهر البستان جعلت تقلبه بين يديها وانفها لحظة ، ثم التفتت الى لتقول :

— الحق والجمال فى ما هيتهما القصوى ينبعان من مصدر واحد : هو الوجدان . وقد اوتى اخناتون عبقرية الحق والجمال من أرقى طراز ، فلم يكن شيء فى الدنيا أقدس عنده من الحق المطلق ، ومن عبادة الجمال وتحريه فى اسمى صوره ، وهى حب الحق ، والعطف والرحمة ... ولأنه يدين بالحق المطلق ، بشر بالله الحق ، والحق لايتعدد ، ولايتجسد ، ولا يتغير ولا يتبدد . ولأن الله خير كامل ، ومحبة لانهاية لها ، كان اخناتون مثل الانسان المحب ، المؤمن بالله المحب

فقلت للملكة :

— ونعم الخلال هى !.. ولا غرو أن تنوهى بها ، فان التاريخ لم يحفظ حب زوج لزوجته كما حفظ حب اخناتون لنفرتيتى .. اليس حبه لك كان قسمه اذا اقسم اليمين المغلظة ؟

فابتسمت الملكة لتلك الذكرى البعيدة وقالت :

— وما ذاك ؟ انه كان لايذهب الى حفل حافل فى المعبد او فى الساحة ، او فى القصر ، الا وانا الى جواره ، وبناتنا الصغيرات من حولنا ، أو بين رجلينا فى المركبة تشق بنا شوارع المدينة !

وسكتت الملكة ، ثم ابتسمت كأنها ذكرت شيئا جميلا آخر :

ـ انه كان يقبلنى ويبادلنى القبلات وهو يقود العربة فى الطريق العام ، والناس على جانبى الطريق ينظرون ! فما اشبه هذا بولع شباب زمانكم بقيادة السيارات ومعهم صواحبهم ...

فصحت :

ـ مولاتى ! ياله من تشبيه ! ..

ـ مع الفارق طبعا !

ـ انه فارق النقيض من النقيض ! فليس تشابه الفعل بالفعل شيئا .. انما العبرة بالبواعث النفسية . فهل كانت بواعث اخناتون فى مثل هذا الموقف هى الاستهتار والمجون والتمرد على العرف والقانون ؟.. وهل كان يفعل ذلك بأعراض الناس ساطيا او مختلسا ؟

ـ حاشا له ثم حاشا ... وانما قصد من ذلك الى هدف بعيد

ـ وانى لمشوقة لمعرفة ذلك الهدف البعيد ...

ـ انه محو ضلالة العقيدة فى الوهة فرعون . فهو يريد أن يشهد الناس كافة ان فرعون ان هو الا بشر مثلهم رفعه الله مكانا عليا .. وانه يشعر كما يشعرون ، ويصبو كما يصبون ... ثم قصد أيضا الى توكيد معنى آخر لايقل عن ذلك المعنى الدينى الذى يمس التوحيد والتنزيه لذات الله ..

ـ وهو ؟

ـ وهو ان الاسرة شيء مقدس ، وان الزوجة شيء طاهر، وان لا اثم فى حب صحيح غير قائم على محض شهوة الجسد. وان الرجل الفاضل الكامل حقا هو الذى يعبد الله بحب زوجته واولاده ... ولاسيما انه لم يكن لنا بنون ، وانما هن بنات ، والناس قد درجوا على أن « ليس الذكر كالانثى » فأراد أن يدخل فى انفسهم ان الزوجة الفاضلة والبنات نعمة

كبرى لاينبغي أن يغض من قيمتها الرجل الكريم المؤمن بالله الحق المحب واهب الحياة ...

معادن الرجال

فقلت :

ــ هو المثل والقدوة اذن .. وهو التضحية بالذات فى سبيل الحق .. فهو يأبى الا ان يمعن فى تحطيم ألوهية فرعون متطرفا فى ذلك الى حد تعريض هيبته للخطر

ــ اجل هى القدوة .. وتعليم الناس وتصحيح مقاييسهم للرجال والرجولة ايضا

ــ وكيف ؟

ــ ان الناس كانوا يحسبون الرجولة ان يغلظ قلب الرجل منهم فلا يرق لحرمه ، ولا يهش لفلذة كبده ، ولا يتبسط مع ذوى قرابته وخاصته ، ولايبكى ولو نزلت به الرزايا الجسام ... فكانما الرجولة « تعطيل » الحياة فى الرجل ، فلا يعرف السرور ولا يعرف الحزن ولا يعرف الحنان .. فأبى الا أن يصحح ذلك الفهم المعوج ، لأنه كان رجلا عميق الشعور ، نصيبه من الحياة واحساساتها نصيب ضخم ... فاذا كان الناس على دين ملوكهم ، فقد حق له أن يبدى للناس ما الفوا أن يصان عن العيون ، تعزيزا لسلطان الحق الى جانب تعزيز مكانة الشعور فى حياة الانسان . فهو يلاطفنى فى المآدب والمحافل ، ويداعب بنياته ، ويدعو رجال دولته الى مثل ذلك.. فاقتدى به منهم عددضخم ، حفظت لكم الايام صورهم مع آلهم وزوجاتهم وبنيهم فى الفة محببة. وان مايسعدنى فى غربتى بمتحف برلين ، ان بذلك المتحف تمثال صغير لاخناتون يلثم فم ابنتنا الصغيرة فى حنان لاحد له ... وهو الحدث الذى لم يسبق اليه فى تاريخ الفراعين

ــ وانه لحدث عظيم ... فقد نفخ الحياة فى قوم كان مثلهم الاعلى ان يكونوا أصناما بغير حياة !



نفرتيتى فى عربتها الملكية

— اى والله يابنية ! وان انس فلا انس منظره يوم ماتت بنت من بناتنا السبع ، فقد انهمر دمعه مدرارا ، ووقف معى الى جوار نعشها يندبها ويبكيها غير مقتصد ولامحتجز! وما كان سواد الناس يبكون البنين فضلا عن البنات .. وناهيك اذن بفرعون سيد الارضين ...

— بل هكذا يكون السيد العظيم حقا ، ولايكون الا كذلك ! وما أعرف انسانا عظيما خجل من الحزن قط ...

— صدقت يابنية .. فهذا الرســـول الكريم يبكى يوم وفاة ابنه ابراهيم ، ويسوى له لحده بيده ، ويقول للجبل : « لو أن بك ما بنا لهدك » ...

— اجل يامولاتى .. وهذا رجل فيلسوف مثل ديكرت يبكى ابنته « فرنسين » التى انجبها من صديقة له بكاء شديدا .. لعمرى يامولاتى لقد حسب الناس انه هبط بمكانة فرعون ، من حيث ارتفع بها اخناتون الى السماك الاعلى.. ووضع للناس حدا فاصلا بين معادن الرجال وأشباه الرجال

الحق والفن

فقالت الملكة :

— وابى فوق هذا الا ان يعمم دين الحق والاحســـاس بالحياة واطراح النفاق والتصنع ، فيشمل الفن كما شمل الحياة .. فانطلق الفن فى عصره من اسار التقليد والجمود القديم ، ليصير ، كما ينبغى له أن يكون ، معبرا عن الاحساس بالحياة ، وعن الاشكال والالوان على حقيقتها .. فالح فى تصويره وتصوير أسرته كما يـــدون ، بعيوبهم الجسمية ظاهرة ، امعانا فى تحطيم الوهية فرعون وآله ، ومبالغة فى تقديس الحق فى كل شىء ، واعلانه بغير مواربة ولا مداراة

— وانى لأحسب يامولاتى ان النـــقلة من طيبـــة الى

« اخيتاتون » ، وانشاء تلك العاصمة الجديدة بعد ان لم تكن ، قد كفلت للفن الجديد الصادق الحر ان يجد الميدان الفسيح للابداع فى غير تعثر ولا تردد ...

ـ طبعا ! لقد أنشئت العاصمة انشاء .. فخططت وبنيت معابدها وقصورها على أساس الفن الجديد ، الذى يجمع بين البساطة والجمال فى آن واحد

ـ وزينة القصور ؟

ـ تلك هى الطفرة الكبرى ! فقد اختفت مناظر الجبروت والخضوع ، وبرزت مكانها مناظر الطير والحيوان والسمك والزهر ، ونور الشمس الباهر يغمرها ، وهى تمرح فيه سعيدة ناعمة ... ثم صور فرعون وآله فى مجالسهم ، وفرعون يداعب ، أو يسمر ، أو يمد يده بكأس نحوى فأملؤها له من قدر خمر فى يدى ، وبنت من بناتنا تقدم له شيئا فى طبق على راحتها ، وأصغر البنات تحمل اليه أعوادا من الزهر المونق ...

ـ ما أجمل وما أبدع ...

ـ واجمل من هذا ان جميع عيوب فرعون واهله تظهر فى ذلك الرسم بكل وضوح ... فالحق والجمال شىء واحد لايتجزأ ...

ـ وهل رضى عن هذا الرأى أصحاب الفن ؟

ـ ويحك ! وهل يرفض الفنان الحق الحرية فى الاداء والتعبير ؟ ان الفنانين كانوا قبل ذلك اليوم مغلوبين على امرهم ، مرغمين على صب أعمالهم فى قوالب التقليد والمداراة والتكلف ، ارضاء لضيق افق السادة ، بل الآلهة من فراعين مصر ...

وهززت راسى يمنة ويسرة بحركة خفيفة ، ولكنها لم تفت عين الملكة .. فسألتنى ماذا يدور براسى ، فقلت :

ـ لا شيء ذو بال يا مولاتى .. انما هو خاطر هين ...

ـ وما هو ؟

ـ ذلك التوحيد، وذلك الولوع بالحق .. فلاشيء الا «الحق» يشغل هذا الانسان العظيم ، لا عن ذكاء وكفى ، فما يقوم الذكاء بكل هذا القسط من الادراك الذوقى الرفيع ، بل عن المعية الروح ونفاذ البصيرة ، فانه وعى الكون الى الاعماق، فتجاوبت معه نفسه ايمانا بعظمة الموجود الكامل ، وانفعالا بدفعات الحياة من حزن ونشوة وفرح ومحبة .. فكيف اجتمعت هذه الرقة التى لا مثيل لها ، وتلك الصرامة والصلابة التى سولت له ان يضرب الضربة الكبرى ؟ فان تحدى الكهان من رهط آمون هول ليس كمثله هول ...

ـ ذلك تمام الايمان بالواحد الحق ، فان شجاعة الايمان هى تمام الايمان ، وكان ايمانه ـ علم الله ـ فى اوج التمام ، فأحب ورق عن قوة نفس ورهافة حس ، لاعن ضعف ورخاوة . وقاوم وصمد وتحدى عن قوة نفس ايضا ورهافة حس ، لا عن قسوة وشرة : لأن الحق هو دافعه فى الحالين على اختلاف المظهرين

تمام التوحيد

فقلت للملكة :

ـ الآن فهمت السر الكامن وراء اجتماع الصلابة والرقة والطيبة المتناهية فى شخص اخناتون .. ولكن ثمة شيء يحيرنى ولا اكاد أجسر على استيضاحه .. لولا انه لا حياء فى العلم

ـ لا حياء .. لا حياء ...

ـ انها مسألة اولاد فرعون ...

ـ اى اولاد ؟ انه لم ينجب الا سبع بنات ماتت واحدة منهن وبقيت ست ...

ـ مولاتى ! هذا موضع الحرج ...

ـ وفيم الحرج ؟

ـ قيل انه انجب من غيرك من نساء الحريم ولدين على الاقل : سمنخ كارع ، وتوت عنخ آتون ...

ـ وى ! انها لكبيرة من الكبر ...

ـ الم تكن بين يديه وتحت يمينه القيان والسرارى ؟

فحملقت الملكة فى وجهى مستغربة وقالت :

ـ ان من يقول هذا أو يصدقه فقد جهل « روح » اخناتون ، واخناتون روح ، وروح عظيم . انه رجل فطر من حس مرهف ونفس شفافة رفافة كالزهر ، سمت فطرته الى الحق الاسمى ، وصفت سريرته فنفذت الى كنه الوجود المطلق .. فهل يكون هذا الرجل اخا نزوة ، واسير شهوة ؟ انه صاحب التوحيد ، فى الفن والحياة ... وليس مثله من ينوء تحت غرام الشهوة . لقد كان اخناتون موحدا فى كل شىء ، ولاسيما فى هوى القلب ، لأن الايمان والحب عنده شىء واحد ، والجسد عنده وعاء الروح ، وما كان ارقه من وعاء ثقلت عليه الادواء ، بما ورث وما كلف نفسه من عناء على السواء ... فلا تحسبن اخناتون كان يتشهى امراة سواى ، او يتدلى الى خيانة حبه لى ، وانه لشديد

ـ ولكن الناس لم يدرجوا على اعتبار التعدد أو التسرى خيانة !

ـ وهم ايضا لم يدرجوا على اعتبار الوثنية كفرا والحادا ! ولكنها كانت كذلك عند اخناتون ... فليس مثله من يستعير مقاييسه الخلقية والوجدانية من احد .. والحب عنده لايمكن لهذا ان يتعدد ، ولا ان يستبدل الذى هو ادنى بالذى هو خير ، فيعرف امراة لانها انثى ، بعد ان عرفنى

كما يعرف الانسان الانسان ، بالروح والوجدان لابمحض نزوة جسد شهوان ...

— ما اشقانى بهذا الذى نقلت اليك ...

— هونى عليك ! ودعينى اهمس فى اذنك ان اخناتون الذى سجل حياته سافرة كان حريا أن يسجل هذا التسرى المثمر ويعلنه على رؤوس الاشهاد ... لولا انه لم يكن قط

والعرش ؟

فقلت متحيرة :

— ووراثة العرش ؟ الم تخطر له ببال ، والم ترد لك على خاطر فتدفعيه الى التماس الولد التماسا ؟

— كلا ! لم يحزنا ذلك الامر ، لأن اخناتون كان قد حسمه واستراح الى قراره فيه .. فقد كان هناك سمنخ كارع ، الذى كان عنده عوضا عن الولد ، وبموضع الولد ...

— ابن من هو اذن ؟ لقد قال آخرون انه اخوه الصغير ، وانه لهذا كان يدلله ويقبله ويضمه الى صدره ... حتى ارجف المرجفون ...

— الا ساء ما يتوهمون ! اتذكرين اخا اخناتون الاكبر ، واخى انا ايضا ، الذى سمى « تحتمس » وجعله والده كبيرا للكهان فى منف ، ووكل اليه شؤون الثقافة والمعابد فى اقطار مصر ، ثم مات فى ريعانه ؟

— اجل اذكره يامولاتى ، واذكر ان اخناتون خلفه على ولاية العهد

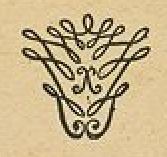
— هذا هو والد سمنخ كارع ، الذى احبه اخناتون وتبناه ورباه مع بناته وكان برا به ليهون عليه مرارة اليتم الباكر .. ثم زوجه من كبرى بناته ليرث من بعده العرش ...

— وتوت عنخ آمون يا مولاتى ...

ـ هذا فتى من النبلاء انسباء الاسرة ، اصطفاه وزوجه من ابنته الثانية ... وذلك تأويل ما لم تعلمى ...

ـ الا شد ما يظلم الناس كبار الرجال أحياء وأمواتا ...

ـ بل يظلم الكبار انفسهم ، أو يظلمهم قدرهم الذى خلقهم عمالقة فى بلاد الاقزام !



محنة الأمين

القمة الباردة

واستأنفت الملكة حديثها عن زوجها الملك ، فقالت :

ـ حمل اخناتون عبء رسالته سنة بعد سنة ، محدثا بذلك أعجب ثورة حدثت أوتحدث قط فى تاريخ هذا الكوكب : فقد الف الناس أن يثور المحكومون على الحاكمين طلبا لحق مهضوم أو ردا لعدوان غشوم . ولكن ثورة هذا الثائر الفذ كانت ثورة حاكم لا ثورة محكوم ، ولم تكن تهدف الى تعزيز السلطان ، بل الى تغيير أساس السلطة ونظام الحكم لمصلحة المحكومين انفسهم . كانت ثورة مثالية لتحقيق الحرية ، بل لاقامة النظم الاشتراكية . والمفروض فى الثورات أن يتحمل الثائرون أعباءها لمصلحتهم ومصلحة طبقتهم ، فاذا بثورة هذا الثائر الفريد تنصب على حقوقه وحقوق فئتـــه من الفراعين . فقد ولد الها فأبى الا أن يصيح فى آذان الناس : انى بشر فلا تعبدونى ، واعبدوا ربى وربكم . وكان الناس يرون أن أهم صفات الرجل العظيم ـ وفرعون راس العظماء اطلاقا ـ شدة البأس والجبروت والقهر ، فاذا هو يعلن على الملأ ان خاصـــة العظمة هى الحب والرحمـــة لا الجبروت والبأس . وان صفة العزيز انه الحكيم الرحيم ، لا القـاهر الغشوم .. فكان أول من نادى بتعاليم المسيحية قبل المسيح بثلاثة عشر قرنا ، وقبل الموسوية بزمان طويل . فكان الرائد الذى لم يسبق ، وظل قرونا طوالا لا يدرك ولا يلحق .. بل أن حلمه الرائع ظل الى اليوم دون أن يتحقق !

ـ انها عبقرية الذوق المرهف والالهام الرفيع ...

ـ هى العبقرية أجل .. وما من عبقرية الا وعليها ضريبة

تصاعدية ، تزداد بمقدار عظمتها وتفردها . واقسى هـذه الضرائب على الاطلاق هى « القمة الباردة »

ـ وما هى القمة الباردة ؟

ـ هى الوحشة التامة الناجمة عن التفرد والانقطاع فى علو شاهق من آفاق الروح والفكر لا يشرك المرء فيها أحدا من الناس .. وكلما ارتفعت هذه القمة عن زمانها وبنى جيلها كانت العزلة أكمل ، والوحشة أتم . فتنقطع بين العبقرى وبين أبناء جيله الاسباب ، فهو فيهم وليس منهم ، وبينهم وليس مثلهم ، ولا هم مثله فى أخص خصائصه التى من أجلها يعيش . وهى مبادئه ونظرته الى الكون والحياة

خطأ الأريب

فقلت للملكة :

ـ ان العبقرى لا يخلو من التبعة كل الخلو فى هذا الشقاء الذى يعانيه بانقطاع الناس عنه وانقطاعه عنهم فى « القمة الباردة » ...

فسألتنى الملكة فى دهشة شديدة :

ـ وكيف ؟

ـ الم يتبين منذ البداية انه بعد عنهم وكلفهم فى مرتقاه مالا طاقة لهم به ؟ فكيف اذن يلومهم بعد ذلك كأنه يجهل حقيقة موقفه منهم ؟

ـ وما الذى انباك انه يتبين منذ البداية صعوبة المرتقى على أهل زمانه الذين يعنى نفسه بتبشيرهم وتبصيرهم ؟

ـ وكيف لا يتبين ذلك وهو الفطن الاريب ؟

ـ لانه فطن اريب !. الا تذكرين قول صاحبك أبى العلاء :

واعجب منى كيف أخطىء دائمـا
على اننى من أعرف الناس بالناس ؟!

كذلك كل عبقرى اريب .. فانه يحسب الناس جميعا خلقوا على غراره ، أو هم على الاقل لا يختلفون عنه اختلاف الطبع الاصيل ، وانما هى اختلافات فى العرض لافى الجوهر ..

ومن هنا يأتى خطأ العبقرى فى فهم بنى جيله .. فهو يحسب طريقة احساسه وتفكيره هى الطريقة البديهية التى لا تحتمل الخلاف ، وانه يكفى التنبيه اليها ليثوب اليها كل من شذ عنها .. وتعمل الحماسة للفكرة والعقيدة على خداع صاحبها ، فلا يتبين مدى البون الشاسع بينه وبين سائر الخلق ، حتى ينقضي زمن طويل ، فاذا هو مخدوع طالت عليه الخديعة ، واذا من يحسبهم حوله أو قريبين منه بعيدون جدا ، واذا به وحيد فوق « القمة الباردة » بغير انيس ولا شريك ... فيحس بالمرارة وخيبة الرجاء ، وقد يستولى عليه القنوط من اداء رسالته

ــ واها له !.. ولكن لماذا يهتم العبقرى كل هذا الاهتمام بالناس ؟..

ــ هذا يا بنية داء العبقرية ، على اختلاف فى الدرجة والشدة : فعباقرة الفنون والفلسفة يتركون للاجيال القادمة أعمالهم ويضعون فيها أملهم ، فلا يسرع اليهم القنوط ، ولا تبلغ منهم المرارة كل هذا المبلغ ، أما عباقرة العقائد ، فلا سبيل لهم الى التغاضى عن انفضاض الناس عنهم .. لان الناس هم « موضوع » رسالتهم و « الوسط » الضرورى الذى لا يمكن ان تتحقق بدونه تلك الرسالة .. وذلك ما وصل اليه اخناتون بعد سنين من التبشير والكفاح الذى لا ينقطع ، فكان ذلك اقسى عليه من المرض،ومن آلام الجهاد العنيف الذى يثقل على من خلق مثله كارها للعنف بفطرته

خيوط المؤامرة

فسألت الملكة فى شىء من الدهشة :

ـ ولكن لماذا طالت هذه المدة ، فلم يفطن اخناتون للحقيقة قبل ذلك الوقت المتأخر ؟

ـ لانه كان يا بنية ضحية مؤامرة محبوكة الاطراف ...

ـ مؤامرة ؟ ومن دبر هذه المؤامرة ؟

ـ لا احد . . انه القدر، وليس مثل القدر اذا احكم ما دبر . فقد ائتلفت عناصر مختلفة واجتمعت على خداع اخناتون . فهو رسول دين ، ولكنه ملك الارضين ... وهو ملك نافذ السلطان ، ولكن رجاله من طراز خلقه خلقا ولم يكونوا من قبل أهل حكم وسياسة ... ففيهم الغر ، وفيهم الوصولى، وفيهم من يأكل على المائدتين ، ويضلع مع كهنة آمون ، وفيهم من يتهم اخناتون بالغفلة ـ لانه لا يفهمه ـ ولكنه يستغل هذه الغفلة للثراء والتقدم فى المناصب . فأولئك كلهم خدعوه . . وخدعه كذلك معظم المخلصين من انصاره ، لانهم كانوا يحسبون لحماستهم أن دينهم انتصر وانتشر حقا ، او لانهم كانوا يحبونه فلا يريدون ادخال الحزن على قلبه الكبير بتثبيط عزمه واثقال همه ... فظل يجهل حقيقة موقف الناس منه ، وحقيقة الاضطرابات التى نشبت فى الامبراطورية ، حتى ساء الموقف فيها ، فلما علم بالحقيقة ظل محيرا لا يدرى ما يصنع : فانه قادر أن يبطش ، ولكن « أزمة ضمير » فريدة فى نوعها استولت عليه : اينكر مبادئه ومثله العليا التى ينادى بها فيقهر ويرغم على الخضوع من ثار وخان ، او يبقى على مبادئه ومثله ويفرغ لتوطيد الدين الحق فى مصر أولا وقبل كل شىء ... حتى سبق السيف العزل ، وسقطت « طونيب » ، وزالت الراية المصرية عن بلاد الشام ، وأوغل الحثيون فى الارض ايغالا ينذر بالاخطار الجسام

فقلت للملكة :

ــ كل هذا مفهوم ، ولكنه لا يفسر كيف صحا اخناتون فى وقت معلوم على صوت الحقيقة الصارخة الذى ظل لا يسمعه، وهو هو المبشر بالحق يتحراه ولا يريد عنه بديلا ؟..

ــ صحا على صوت مؤامرة اخرى ...

ــ من صنع القدر أيضا ؟!

ــ من صنع البشر لا من صنع القدر .. فقد دبرها رجال آمون ، وسعوا الى تحقيقها مستعينين برجال من حرسه الخاص ...

ــ انه سحر المال ، واغراء الذهب ولا شك ...

ــ لا اظن ! فان المال لا يغرى جنديا على تعريض حياته للخطر المحقق بقتل ملك ، وأى ملك ؟ فرعون مصر !

ــ ماذا اذن أغراهم أن يركبوا ذلك المركب الصعب ؟

ــ ما هو أغلى من الحياة عند مثل هؤلاء ... فهم من رجال الجنوب ، من أهل القبائل التى لا تزال على الفطرة . وهم لا يفهمون ولا « يهضمون » فلسفة اخناتون الروحية ، ولا شك أنهم كانوا ينظرون الى ظواهر أعمال اخناتون فى حياته الخاصة والعامة ، من التبسط والتحرر ، نظرتهم الى المجون والخلاعة التى لا تليق بالملك ، وتخدش العرف والحياء .. ولا سيما ان دعايات كهان آمون ، ورجال المال ، كانت كلها مسخرة لتشويه سمعة الملك ...

ــ وكيف يتركهم الشرطة يذيعون هذا ؟..

ــ لان سلاح المقاومة دائما فى هذه الحالة هو الجماعات السرية . ولا يعجز قوم مثل كهان آمون لهم منظمات وحول وطول واشياع وأتباع ان يبثوا الدعاوى السرية فى كل مكان

.. ويضاف الى ذلك انهم اصحاب السلطان الروحى الموروث المألوف ، والناس عبيد ما الفوا ...

ــ وكيف اذن نجا فرعون من المؤامرة ؟

ــ لان قوما آخرين ممن لمست قلوبهم طيبة فرعون وشوا بالمتآمرين فضبطوا متلبسين ، وحوكموا ، وعوقبوا أشد عقاب .. وحمد الناس جميعا يد العناية التى حمت فرعون، الا فرعون نفسه ، فان وقع هذه المؤامرة على نفسه كان حاسما لانها دلته على حقيقة المخبوء وراءها . فلم ينطل عليه قول القائلين ان سلطان المال هو الدافع الى القيام بها . ولم يفارق ذهنه منذ ذلك اليوم معنى هذه المؤامرة ، وبدأ ينظر الى من حوله بعين جديدة .. فاكتشف خبيئة نفس الكثيرين منهم ، فأقصى من أقصى ممن كان قد رفعهم . ولكنه كف بعد ذلك عن الاقصاء والعقاب ، عند ما رأى الداء أشد انتشارا مما كان يقدر ، فبلغ منه التقزز حد عدم الاكتراث .. وعدم الاكتراث صنو القنوط

ضعف الأمين ..

وبدا الاسف واضحا على وجه الملكة ، فقلت لها :

ــ ان القنوط أشأم ما يصاب به انسان ، ولا سيما أصحاب الرسالات منهم .. ولكن أين قوة الايمان ؟..

ــ ليس قنوط هذا الطراز من البشر عن وهن فى ايمانهم، وان بدا كذلك . وانما هو على العكس مما يبدو لاول وهلة، نتيجة لازمة لقوة الايمان ، وقصور وسائل الامكان . أليس المسيح بعد ذلك بثلاثة عشر قرنا قد عانى من اليهود ماعانى، حتى صاح يناجى ربه : «الهى ! الهى ! لماذا تركتنى ؟ » ... فهو يستنجز ربه ما وعده به من نصر . كذلك كان قنوط اخناتون ... انها موجة التشاؤم من الناس ، لا من الحق الذى يدعو اليه ... وقد كان تشاؤمه شديدا جدا

ـ وانت يا مولاتى ؟ انت ؟ كيف يئس وانت الى جواره ؟ الم تكونى مؤمنة به كل الايمان ؟

ـ ما فى ذلك ريب ! وكان يعلم هـــذا . ولكنه لم يبعث رسولا الى نفسه ، فانما يبعث الرسل للناس . وانا عند اخناتون صنو نفسه بشريعة ذلك الحب الفريد الذى ربط بين قلبينا ، بل وحد بين روحينا ... فكنت انا بايمانى به غير قادرة على عزائه ، فى حين كان ينبغى أن اكون موئل عزائه ...

ـ يا للرجل المسكين !..

ـ تلك حقا كانت كلمة كل من احبه فى ذلك الظرف الدقيق ، حتى ان امنا الملـــكة تى اسرعت اليـــه من قصرها شرقى طيبة لكى تطمئن عليه ، وتسرى عنه بعض التسرية مما يجد ... ففرح بزيارتها التى لم تعش بعـــدها طويلا ، وتركته يجتر آلامه ، ويشكو الى الله « ضعف الامين وقوة الخائن » ...

وسكتت الملكة لحظة ، فاحترمت صمتها حتى عادت الى الحديث :

ـ لقد راى نفسه فى مفرق الطرق : وما من طريق منهـا يؤدى الى السعادة وراحة النفس ، وانما هما طريقـــان ، وحديث نفسه فى امرهما كقول أبى على بن الرومى :

أمامك فانظـــر اى نهجيـــك تنهج
طريقان شتى : مســـتقيم وأعوج !

واصعب ما فى الامر ان الطريق المستقيم ليس أحلى من الأعوج مذاقا

ـ وما الاعوج وما المستقيم ؟

ـ اما الاعوج فهو التخلى عن الحياة ، وقد تعذرت عليه حياته ، وعاف ان يعيش فى دنيا لا تفهمـــه ولا تستجيب

لدعوته الى الخير .. واما المستقيم فهو الانطواء على نفسه وترك الدعوة

ـ وكيف ذلك ؟..

ـ بترك العرش « لسمنخ كارع » ولى عهده وزوج ابنتنا الكبرى ، وهو ابن اخيه تحتمس الذى توفى فى منف .. ثم يعيش معي ومع البنات والانصار المختارين فى ظلال الدين الجديد ، فى شبه دير من الاديرة التى عرفت فى مصر على عهد المسيحية ...

وسكتت الملكة فجأة ، وقد لمعت عيناها .. ثم لم تلبث أن قالت :

ـ من عجب انه كتب على مصر ان تكون اول بلد يعرف الاديرة والنساك فى الصوامع ... لماذا ؟ لانها عرفت استقلال الرأى الذى لا محيص لصاحبه أن يعتزل الناس ، لينجو بنفسه وعقيدته من القنوط ، أو من الموت ، أو مما هو شر منهما وهو المسخ او الابتذال ؟! ..

البداية والنهاية

روح ولا جسم ...

وفجأة رأيت نفسي على مشارف الصحراء ، فسألت الملكة في دهشة :

ــ وي ! الى اين ؟ واين نحن الآن ؟

ــ اننا يا بنية حيث وقف التاريخ من خبر اخناتون .. فمبلغ ما وعى الدهر من امره بعد ما تقدم ، ان سمنخ كارع خلف اخناتون على عرش مصر .. اما اين ذهب اخناتون ؟ وهل مات او قتل ؟ ولئن مات او قتل فاين جثته فيما حفظ الدهر من اجساد الاجداد؟.. كل هذه أسئلة لا يجد التاريخ عليها جوابا . فقصارى ما يعرف التاريخ من هذا الامر أن اخناتون أطلع في ظلمات الماضي نورا ثاقبا ، ولكنه كان نورا بلا نار ، وحرارة بلا أوار . وان ذلك الروح العظيم رحل عن الدنيا فلم يخلف وراءه جسما محفوظا ، كانه كان روحا بلا جسم

فقلت في اسى وخشوع :

ــ مولاتي . تقدست آلاء الله .. الا ما احسن مقالة ابن الفارض فيه :

صفـــاء ولا ماء ، ولطـف ولا هوا
ونور ولا نار ، وروح ولا جســم

وانه لكلام بديع وغزل رفيع ، وانه لمن الجيد القليل في شعر هذا الشاعر المتصوف

ــ هو شعر جميل حقا ، ولو كانت العربية لسان اخناتون لقال مثل ذلك او ما في طبقته

ــ بل أن أخناتون يا مولاتي قال في الذات العلية شعرا من اعلى طبقة في الشعر العالمي في جميع اللغات ، وفي جميع العصور . وليس فيما حفظ منه سطر واحد من سقط

القول . . . ولكنى يا مولاتى أرى فى النفس حاجة لم تنقض .. أصرح بها أو أكتمها ؟ .

ــ سيان ! فانى عرفتها ، ولاقضينها .. وانما أردت أن أوفر عليك تعبا وعناء قيل وقال فى غير ذى بال ... انك تريدين معرفة اليقين عن نهاية اخناتون . . .

ــ ذلك والله ما عنيت : فانى أريد أن أعرف كيف ودع الحياة ذلك الروح العظيم ، أعظم روح خطرت تحت سماء مصر منذ الازل . . .

ــ ساروى هذا الشوق ، ولكنى أخشى أن رويته للناس أن يقال أضغاث أحلام ونسيج أوهام

ــ لا عليك مولاتى .. فما على الحالم بأس اذا استعصى الواقع الملموس على طالب المعرفة

من هنا نبدأ

فقالت الملكة :

ــ اذن من هنا نبدأ ..

ــ نبدأ ماذا ؟

ــ نبدأ طريق النهاية ، التى خالها اخناتون طريق البداية. ففى هذا الموضع على باب الصحراء وقف ذلك الانسان اخناتون محيرا يسأل الفجر ويستشف من أنواره نورا لضميره الحائر : أيظل ملكا ، أم يخلص للنبوة ؟ وهل هو نبى حقا ورسول معزز ، أو هو « صوت صارخ فى الآفاق ، أن افتحوا قلوبكم لنور الله الذى يزمع أن يشرق . . . »

ــ لقد بدأ يشك اذن . . .

ــ أجل ، ولكن فى نفسه لا فى رسالته ، فى عمله لا فى ايمانه، فقد تبين له أن الايمان لا يلقى الى الناس من أعلى ، من حكامهم ،بل يجب أن يخرج من أعماقهم فيرتفع رويدا رويدا،

حتى يغمر القمة كما غمر القاع . ومن اجل هذا أيقن ان الشعب هو البداية ، وان التبشير بالحق يجب أن يبدأ من هنا . . من لا شيء ، من الداعية المجهول بين الناس ، ومن البرية ، ومن الريف ، ومن الصحراء ، يزحف على المدينة وعلى القصر . . . ولكن شيئا واحدا وقف كالغصة المعترضة فى الحلق . . . ذلك هو أنا . هل يتركني وحيدة بلا معين ؟ هل يدعني وبنياتى للمخاطر والاهوال ؟ ايأمن على من أعدائه واعدائى ؟

واضطرب صوت الملكة ، واختلج بدنها وهي تقول بعد صمت قليل :

ــ وشهدته انوار الفجر فى هذا المكان ، واقفا ينظر الى الافق ، منكس الراس ، محزون الفؤاد، وفى عينيه الصافيتين دموع تنحدر على خده الناحل فى صمت . . . اجل فى صمت ، ولو كان للعواطف والاحاسيس صوت لسمع فى صدره كهزيم الرعد فى ليلة عاصفة . . .

وسكتت الملكة برهة اخرى ، حتى هدأ جاشها . . ثم قالت بصوت تبدو فيه العزة والزهو :

ــ واخيرا انتصر الواجب ، وكانت للايمان ورسالة الحق الكلمة العليا . . . وعاد اخناتون الى القصر بعد صلاة الصباح الباكر مطمئن النفس ، فنام الى الضحى ، ثم كتب رسالة الى « حور محب » قائد الجيش فى منف أن يكون على اهبة السفر الى العاصمة لحماية ولى عهده . . .

ــ ألم يكن حور محب على دين آمون فى دخيلة نفسه ؟

ــ بلى ! ولكنه كان رجلا . وكان اخناتون يقدر أن آمون يجب أن يسترد السلطان ، حتى يتسنى له فى حياته الجديدة أن يتغلب عليه ، لان تحدى السلطان احب الى الناس من ممالأته !

« فلما كان المساء . . خرج الملك وحده كما كان يخرج احيانا ،

وقبلنى وقبل البنيات ، ولكنى لم أحسب أنها قبلة الوداع الاخير . . . وابتلعه الظلام فى الصحـــراء ، فى ثياب كان قد أعدها فى المعبد لهذا الفرض، فبدا درويشا من دراويش «أون» دين الشمس القديم الذى كان يعبد فى هليوبوليس »

ـ وترك القصر فارغا ؟

ـ أجل ! تركه فارغا ، بعد أن وضع فى يد « آى » قائد الحرس ووالد مرضعتى رسالة الى « مريرع » كبير كهـان آتون أن يعلن فى الناس وفاته، وتولية ولى العهد سمنخ كارع، وان جثته حنطت فى مكان حريز حتى لا تتعرض لانتقام كهان آمون وسحرهم ، وكان سحرهم مضرب المثل عند العامة . .

ـ وهل طابت نفســه بتركك ؟

ـ بل طابت نفســه بالفداء وخدمة القضية الكبرى ، قضية الله ، متجردا من كل ما كان له فى الدنيا من سلطان ، ومال ، وولد ، وغرام

ـ ما أهوله من فداء لم تحفظ مثله الايام !. .

ـ هيهات أن يقدم على مثله أحد قط ، ألم يولد ملـكا فآثر الفاقة، وغنيا فآثر الخصاصة، وأبا فآثر العقم ، ومحبوبا فآثر الحرمان ، وعزيزا فآثر الوحدة والمهانة ؟!. وراح يبغى نجوة من كل نعم الدنيا ، فى سبيل نعيم الروح الذى لم يؤمن به سواه ، ولكنه كان عنده أوثق وأثبت وجودا من التاج، ومن الجيش ، ومن كنوز الارض، ومن الحبيبة والولد . . . والولد من دواعى الجبن والبخل ، الا عند من عصمهم الله واصطفاهم لدعوة الحق فطهرهم من زغل الدنيا وفتنتها تطهيرا . . .

ـ كذلك اذن مضى اخناتون ؟. .

ـ أجل، مضى ناجيا بدينه من دنياه . . . ومهاجرا من الملك الشاسع والجاه العريض الى كنف الله . . .

ـ سلام على اخناتون . . وفى حفظ الله . . .

وضحكت الملكة ضحكة حزينة ، ثم اجابتنى :

ـ راح اخناتون يبشر بالوحدانية متنكرا ، فى اسواق الريف ، وفى جموع الناس عند الغروب أمام المعابد . . يأكل مما يقدم له ولو كان من نفاية الطعام ، ويشرك معه فيه كلبه الذى تبعه فى مهجره مثل ظله . .

وسكتت الملكة ، كأنها تسترجع ما غاب،ثم هزت رأسها فى اسى وقالت :

ـ ما أشبه الليلة بالبارحة ! ان التعصب آفة البشرية التى لا آفة مثلها . فهذا شاب من المتحمسين لآتون ، ولاخناتون، دون ان يراه رأى العين قط ، يشعر أن « الدرويش » يردد معانى فرعون الذى « قضى » ، فيضيق بهذا التقليد ـ ولا سيما أن الدرويش كان يتحاشى ذكر اسم آتون واخناتون ، وكان يتكلم فى التوحيد والمحبة عموما ـ وقام براس الفتى المفتون ان « الدرويش » يريد ان يغتصب شرف التبشير بالوحدانية من اخناتون . . فقام اليه وهو نائم فى العراء تحت شجرة فذبحه ذبح الشاة . .

واشرقت الشمس على جثة بلا راس ، لان الفتى اخذ الراس والقى بها فى النهر . . ولم يبك أعز البشر فى زمانه ، أحد الاكلبه الذى جعل يقطع سكون الليل بعوائه الحزين . . .
وكذلك مضى رجل المحبة ، والسلام ، محروما من المحبة ومن السلام ، بيد واحد يحسب نفسه ويحسبه الناس نصيرا مخلصا لرجل المحبة والسلام . . .

ـ واأسفاه ! ما أشبه الليلة بالبارحة حقا . . .

ـ وكيف لا يا بنية ؟ والانسان هو الانسان ، وانه لجهول، وانه لظلوم . . .

ـ « ان الانسان لفى خسر » . . وصدق الله العظيم . . .

کنانۃ اللہ

فى مهب الريح

وعلى صخرة ناتئة فى سهل الصحراء المترامى جلست الملكة .. وجلست صامتة فى انتظار خروجها من صمتها . فلما طال بها الصمت قلت لها :

— وماذا كان من امرك بعدها ؟

— وماذا يمكن ان يكون من امر ريشة فى مهب الريح ؟.. لقد كان خبر موت الملك صدمة لى حين زعمه مريرع للناس كامر فرعون ، فصدقته ... ولكنى رايت حور محب يدخل القصر فجاة ، فأيقنت ان رسالة زوجى وملكى وشقيقى فى خطر ، فكدت اجن . وكانت عقيدته قد جعلت فكرة العالمية والانسانية غالبة على فكرة الوطنية ، اليس الله الواحد اله الناس كافة ؟ فخطر لى ان ادعو ابن أمير الحثيين لدخول مصر ، فيتزوجنى اذا شاء او احدى بناتى ، حتى يصون دين آتون وينشره فى مصر وفى بلاده أيضا ثمنا للعرش .. فيصان الدين ، ويعز جانبه ، ولايعود الامر الى كهنة آمون، وأنا أعلم انهم لن يرحموا حزبنا،ولن يرحموا أسرتنا من الانتقام الرهيب ، أو كذلك خيل الى الوهم ...

— وهل فعلت ذلك حقا يا مولاتى ؟

— اجل فعلته .. ولكن فراسة اخناتون كانت أصدق من فراستى ، فقد كان خبيرا بالرجال ، وكانت ثقته بحور محب ثقة صائبة .. أو قولى ان مصر كنانة الله فى أرضه ، من ارادها بسوء قصم الله ظهره ...

ـ وهل قصم الله ظهر من ارادها بسوء ؟

ـ اجل ! فقد كان حور محب يراقب كل شيء فى الخفاء ، فوقع فى يده خطابى ، فلم يعوقه ، بل تربص على الحدود حتى اذا أراد ابن أمير الحثيين أن يعبرها الى مصر ، ذبحه وحاشيته ذبح الشاة ، ونجا لمصر مجدها ... واستقر الملك لسمنخ كارع ما عاش من ايام الدنيا ...

الوحدة القومية

ـ ولكن كيف علمت يا مولاتى حقيقة ما حدث لزوجك اخناتون ؟

ـ لم اعرف الحقيقة فى حياتى ، وانما عرفتها بعد أن فارقت الدنيا

ـ ورسالة اخناتون .. من الذى حملها الى الناس ؟

ـ لم يحملها احد .. حتى بعث لها الله من رسله من بعث ... فقد عادت عبادة آمون الى الحياة ، مكتسحة فى طريقها كل ما انشاه اخناتون ، فان حور محب رأى ان نجاة مصر من الخطر الخارجى لاتمكن الا بالقضاء على الانقسامات الداخلية ، فنصح لسمنخ كارع أن يعيد عبادة آمون ، ليوطد سلطانه على العرش ... فصدع بالامر ، وتحققت الوحدة القومية ، وتسنى لمصر أن تسترد مع الايام مجدها وهيبتها فى الشرق

فسألت الملكة فى تلعثم :

ـ وانت يا مولاتى ؟ كيف تركت الدنيا ؟ وأين جسمك من هذه الارض ؟

فوجمت نفرتيتى لحظة ثم قالت :

ـ وماذا تنتظـــرين أن أفعل ، وقد فقدت كل شيء ؟. فقدت الرجل الذى احببته وأحبنى ورفعنى فوق كل مقام ،

وفقدت عطف ابنتي وزوجها الملك الجديد لأنني اردت ان أوطىء عرش مصر رجلا غريبا . وفقدت عطف قومي جميعا لهذا السبب :

« والنـاس من يلق خيرا قائلون له
ما يشـتهي ، ولأم المخطىء الهبل !

« فكان لأمي الهبل يابنية،وصرت منبوذة بعد عزة ، وبدأت اشعر بمدى الفراغ الذى خلفه فى حياتى زوجي وشقيقى وحبيبى اخناتون »

وسكتت الملكة لحظة ، ثم رفعت راسها الى وقالت :

ــ وفى ذات ليلة من ليالى الصيف القمراء ، خيل الى انى اسمع صوت اخناتون آتيا من الصحراء ، يدعونى اليه . . . فقلت : (لبيك . لبيك) . . . وتجرعت السم . . . وانطلقت روحى اليه . . .

« فلما اقبل الصباح ، وعلم القاصى والدانى خبر موتى ، انفجر مرجل الغضب العام ، ورفض الكهنة ان احظى بما يكرم به الموتى من التحنيط . . . فعاد التراب الى التراب »

وكأنما رات الملكة وجومى لهذه النهاية ، فأحبت ان تسرى عنى ، فقالت وهى تبتسم :

ــ ولكن المحظوظ فى الدنيا محظوظ فى الآخرة ، ولو فنى جسده وصار ترابا . فقد لقيت فى حياتى من الحب ما لم تلق امراة ، حتى اذا صرت تمثالا صارت لى من الشهرة ما لم يشتهر به تمثال ، وسرقنى السارقون كما سرقت هيلانة بطلة حروب طروادة . . . ولم تنته مغامراتى الغراميـــة بالموت ! . . كلا ! فقد استحدث لى الدهر عاشقا فى برلين

ــ عاشقا فى برلين ؟

ــ اجل ! . . انه الفوهرر ، هتلر . . .

ــ اهنئك به يا مولاتى او . . ؟

ـ لست أمزح .. فقد كانت لى فى برلين قاعة خاصة على الطراز الفرعونى ، وكان هتلر لايجد متسعا لزيارة المتحف نهارا ، فكان يزوره ليلا ، فشاع بين الناس انه يعشقنى ، وانه يأتى لزيارتى تحت جنح الليل ليأمن عيون العذال !

خاتمة المطاف

وضعت الملكة يدها فوق كاهلى ، وهى تهم بالانصراف وقالت لى : « لا أحب ان افارقك يا بنية قبل ان أقول لك كلمة أخيرة ، هى محصل كل هذا العناء الذى لقيه اخناتون ، ويلقاه كل صاحب رسالة فى دنيا البشر :

« لكل شىء فى الحياة أوانه المرسوم ، وطوره المعلوم . ولن تقوم قائمة لأثبت الدعاوى واحقها فى غير أوانها ولو ايدها اعظم ما فى الارض من سلطان ... وقد كانت صيحة اخناتون خطوة قبل الاوان . ولا تزال كل دعوة من قبيلها سابقة للأوان ... »

فقلت اسألها : « ولماذا تظهر الدعوات قبل الاوان ، اذا لم يكن مقدرا لها الا الخذلان ؟ لماذا يشقى بها أصحابها وهم لايريدون بها الا الخير لبنى الانسان ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ »

ولم أتلق جوابا الا ابتسامة باهتة من الملكة ، تلاشت بها صورتها ...

وفتحت عينى ، لألقى الدنيا بهذا السؤال :

ـ لماذا يشقى دعاة الخير فى عالم هو الى الخير فقير ؟ .. لماذا ؟ لماذا ؟ والى متى يارب هذا الضلال ؟ ..

اعطنا يارب مزيدا من النور . وانر لنا قبل ذلك قلوبنا حتى لاتتنكر للنور ...

فهرس

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية قيمة بثمن زهيد

هى خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لأحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج أنيق وطباعة متقنة ، وبثمن زهيد لايرهق أحدا من عشاق القراءة والاطلاع .. وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

الكتاب	المؤلف	الموضوع
عبقرية محمد	عباس محمود العقاد	تحليل لشخصية النبى محمد صلى الله عليه وسلم
ماجلان : قاهر البحار	ستيفان زفايج	قصة طواف ماجلان حول الارض
هرون الرشيد	احمد امين بك	الحياة العامة والخاصة للخليفة هرون الرشيد
ابو الشهداء	عباس محمود العقاد	قصة استشهاد الامام الحسين رضى الله عنه
جنكيز خان	ف . يان	الحياة الحربية والسياسية لجنكيز خان
قلب النسر	أوكتاف أوبرى	قصة غرام نابليون وجوزفين

الكتاب	المؤلف	الموضوع
السيد عمر مكرم	محمد فريد أبو حديد بك	قصة حياة أول زعيم شعبى لمصر الحديثة
غاندى : الثائر القديس	لويس فيشر	قصة أشهر زعيم سياسى روحى فى الشرق
زعيم الثورة : سعد زغلول	عباس محمود العقاد	قصة الثورة فى حياة الزعيم الخالدسعد زغلول
الزعيم أحمد عرابى	عبد الرحمن الرافعى بك	لم يصدر بعد
بطلة كربلاء : زينب بنت الزهراء	الدكتورة بنت الشاطىء	قصة زينب بنت الزهراء ودورها الخالد فى معارك كربلاء
أشعب أمير الطفيليين	توفيق الحكيم بك	قصة أخف الطفيليين ظلا وألطفهم وأظرفهم نادرة

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من دار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المبتديان) بالقاهرة ، وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام بناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ، وأكشاك الصحف

وكلاء مجلات دار الهلال

بيروت ولبنان : السيد خليل طعمه ـ السور ـ العسيلى المدخل الشمالى ص . ب ٥٤٣ بيروت

حلب : الشيخ طاهر النعسانى

حماه : السيد سعيد نجار

اللاذقية : السيد نخله سكاف

حمص : السيد عبد السلام السباعى ـ ص.ب ٤٩

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٩٧

البحرين والخليج الفارسى : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين

البرازيل : Snr. Jorge Suleiman Yazigi, Rua Varnhagem 30, Caixa Postal 3766, Sao Paulo, Brasil

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400, Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

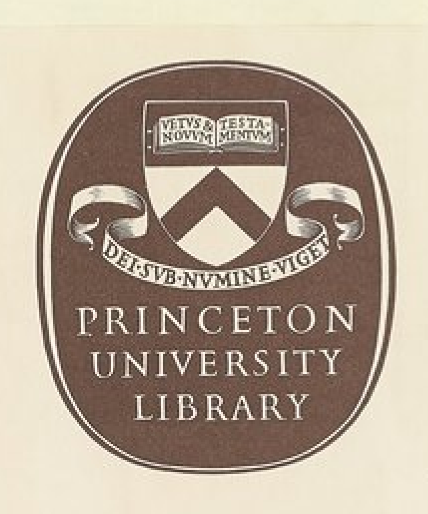
Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

نفرتيتى ربة الجمال والتاج . وصاحبة اشهر تمثال فى العالم ، وملكة مصر فى عصرها الذهبى ، وزوجة اخناتون العظيم اول من نادى بديانة التوحيد قبل جميع الأديان،واول ملك قديس عرف فى العالم القديم، وكانت حياته وزوجته حياة فذة فى التضحية فى معركة الروح والحق والعدل والخير !.

وقد استوفى هذا الكتاب قصة هذين الزوجين : فى حياتهما الانسانية ، وحياتهما الملكية ، وحياتهما الروحية . وصورت مؤلفته الفاضلة تلك المعركة الروحية والاجتماعية التى خاضا غمارها ، ولقيا ما فيها من صعاب وجهاد ، كما صورت حياة الشعب المصرى فى ذلك العصر ، وكيف تنازعته ديانتان : ديانة التوحيد التى حمل لواءها اخناتون ، وديانته الوثنية وتعدد الآلهة التى كان يدعو اليها كهنة آمون

ولعل التاريخ المصرى لا يحوى معركة انتصر فيها الباطل على الحق كهذه المعركة ، ولا مأساة انتهت بها حياة اخناتون وحياة زوجته كهذه المأساة، فقد اعتزل هو الملك والناس زهداً فى الدنيا واهلها حتى مات شهيداً مجهولا . واعتزلت هى الدنيا ، وتنكر لها اهلها، فآثرت الموت على الحياة .. ولكنها ظلت حية خالدة فى تمثالها الرائع وتاريخها العظيم


VETUS & TESTAMENTUM
NOVUM
DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY


WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
July-August 1988
We're Quality Bound


Princeton University Library
32101 060543574